شخصيات غيرت التاريخ

■■



جمال ابراهيم



الناشـــر



للنشر والتوزيع
3 ميدان عرابى ـ القاهرة
تليفون: 01223877921 ـ 01112227423
فاكس: 20225745679+
darelhorya@yahoo.com

التنفيذ الفنى

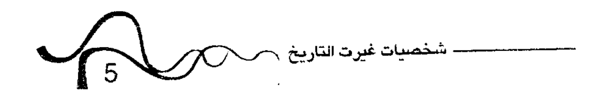


رقم الإيداع: 2013/15903
الترقيم الدولى: 7-91-5832-977-978



الشخصيات التاريخية التي كتب اسمها في التاريخ بحروف من النور على مستوى العالم ما اكثرها وما أحب معرفة أسرار هذه الشخصيات قد ترى شعبا باكمله يحب شخصية عاشت وماتت يتمنون ان تكون هذه الشخصية موجود بينهم يقلدونها ويحكون الاساطير عنها، ولكن اهم شيء في هذه الشخصيات انهم وضعوا هدف او سعوا الى تحقيق شيء ما قد يكونوا يعرفونه او لاي يعرفونه.. لكنهم اثروا على هدفهم حتى اصبحوا هكذا..

ونهدف من تقديم هذه الشخصيات إلقاء الضوء على قصص حياتهم للوقوف على النواحي الإيجابية لديهم، والإستفادة من تجاربهم الشخصية، والتعرف على عطائهم ورصيدهم الإنساني والعلمي



والتاريخى. لأخذ العبرة والدرس والعظة، حتى تستفيد الأجيال الحالية فى التعرف على بعض الشخصيات العالمية التى أثرت فى التاريخ القديم والحديث، ولعلهم يفهموا الدرس جيدًا حتى يستشرفوا آفاق المستقبل.

فهذه الشخصيات غيروا حياتنا وجعلوها أفضل فمنهم من كافح لتحرير بلاده ومنهم من دافع عن حق المرأة فى التعليم ومنهم من كانوا علماء والكثير.

ويبقى التاريخ مفتوحاً..

■ ■ ■



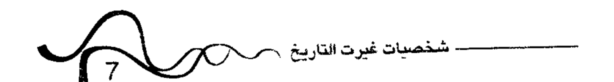
«فالنتينو» عصره!

ترى كيف كان طراز ألعاشق المثالى منذ مائة عام؟

أى نوع من الرجـال كانت تخفق له قلوب جداتنا، ويهتـز له أجدادنا الجـالسـون بجـوار المواقـد برعـدات الغيرة والتشكك؟

ومن كان «دون جـوان» و«فالنتينو» و«كلارك جيبل» تلك الأيام الخوالى؟

إن الاجـابـة على هذه الأسـئلة غـايـة فى السـهـولة: فـمنذ مـائة عـام لم يـكن على وجـه الأرض ـ من وجـهـة نظر النسـاء ـ رجل آخـر يسـتطيع أن يبـارى فـارس الأحلام «جورج جوردون، لورد بيرون!».



كان بيرون أعظم شعراء زمانه. وقد غير تأثيره اتجاه الأدب فى القرن التاسع عشر تغييرًا كاملاً. والشعر الرومانتيكى الذى تضمه دواويننا اليوم مدين بجانب من أعنف أبياته وأرقها لبيرون. وقد أحب بيرون عشرات النساء، ولكن أعجب غرامياته كانت قصة حبه لأخته غير الشقيقة! وقد هزت فضيحة حبهما أوروبا كلها ودمرت حياة الفتاة. وقد كتب إليها بيرون بعد أن بوعد بينهما قصيدة من أجمل قصائده:

لو أننى لقيتك...

بعد أعوام طويلة

فترى كيف سأحييك؟

سأحييك بالصمت والدموع..

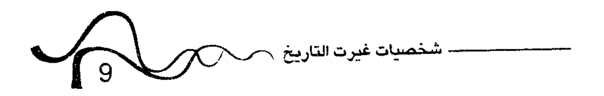
بيرون والنساء!

ولكن عبادة النساء لبيرون كانت تزداد كلما ازدادت سيرته سوءًا ! لقد عبدنه فى جنون، حتى أن

نصف نساء أوروبا ألقين اللوم على زوجته، عندما فارقته آخر الأمر، لأنها لم تستطع أن تحتمل فظاظته أكثر مما احتملت! وهؤلاء النساء ذاتهن، أغرقن بيرون فى طوفان من القصائد، والرسائل الغرامية، وخصلات شعرهن.. بل لقد عمدت إحدى شهيرات النبيلات الإنجليزيات، وكانت ارستقراطية ثرية، ذكية، ونجمة متألقة، افتتنت بها لندن فجثت عند قدميها الدقيقتين.. عمدت إلى التنكر فى زى غلام، ثم وقفت على قارعة الطريق ساعات طويلة تحت المطر المدرار، انتظارا لبيرون، العاشق المثالى، عندما يشرق بطلعته وهو خارج من مقره المقدس!

وقد جنت امرأة أخرى ببيرون غاية الجنون، حتى لقد تبعته طوال الطريق من انجلترا إلى إيطاليا، ثم ضيقت عليه الخناق.. حتى استسلم لها آخر الأمر!

ترى كيف كان هذا المعشوق النموذجى الهائل؟ هذا «الفالنتينو» لقرن مضى من الزمان؟ لقد كانت له



قدم شوهاء. وكان يعرج عرجا قبيحا، ولا يكف عن أن يقضم أظافره، ويلوك التبغ فى فمه!.. بل كان مشاغبا يكثر من التهديد الأجوف بمسدساته المحشوة فى رابعة النهار، وفى قلب «إنجلترا القرن التاسع عشر»، كأحد رجال العصابات فى شيكاغو! وكان حاد المزاج.. فلو حدق الناس فيه، لارتفع ضغط دمه عشرين درجة، لأنه كان يخيل إليه أنهم يحدقون فى قدمه الشوهاء!.. والشاعر الذى نودى به كأكمل «روميو»، كان يلذ له أن يعذب النساء.. لم تكن قد انقضت على زفافه ساعتان حين صارح عروسه بأنه يكرهها، وأنه ما تزوجها إلا نكاية بها، وأنها ستعيش فى حسرة وندم على اليوم الذى رأته فيه أول مرة!.. وقد حدث بالفعل، فلم تستمر الروابط الزوجية بينهما سوى عام واحد. وقد توخى بيرون ألا يضربها قط، ولكنه كان يحطم الأثاث ويأتى بعشيقاته إلى البيت! فانتهى الأمر بزوجته إلى أن دعت الأطباء ليقرروا ما إذا كان قد مسه الجنون؟!

وقد أشاع عنه القرويون المقيمون على مقربة من الدير الكبير الذى اتخذه مسكنًا، مختلف الروايات: قالوا أن خدمه جميعا ليسوا سوى فتيات فى ربيع العمر.. فتيات جميلات خفيفات الظل! كما رووا كيف كان يظهر هو وضيوفه فى هيئة الرهبان، مرتدين الملابس الكهنوتية السوداء الفضفاضة، وهم غارقون فى سكرهم وعربدتهم، التى إذا قيست بها مآدب عشاء الملك المتهتك «بلتشصر» لبدت إلى جانبها أقرب إلى الاجتماعات الدينية!.. وفى تلك السهرات الماجنة كانت الخادمات اللطيفات تقدمن النبيذ، حيث يرتشفه بيرون وأصدقاؤه فى أوان من جماجم بشرية.. جماجم قد عولجت بالتنعيم والتلميع حتى صار لها من البريق ما للبدر فى سماء الصحراء..

يفعل أى شىء.. ليعجب النساء!

وكان الناس كثيرًا ما يشبهون بيرون، بقده الرشيق وقامته الهيفاء، بالآله «أبوللو»! وكانت بشرته ناصعة

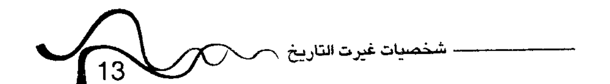
البياض، حتى لقد رددت المعجبات به أنه «يبدو كزهرية من المرمر مضاءة من داخلها!».. ولكنهن ما كن يدركن مدى العذاب الذى كان يعانيه بيرون لكى يبدو هكذا.. ما كن يعلمن أنه فى كل يوم من أيام حياته، بل كل ساعة، كان يخوض معركة منهكة مؤلمة لا تفتر ضد البدانة.. فهو لكى يظل رشيقًا معشوقًا، كان يخضع لنظام غذائى صارم لا يخطر ببال نجوم هوليوود أنفسهم!

فقد كان ـ مثلاً ـ لا يتناول طوال يومه سوى وجبة واحدة، وهذه الوجبة الوحيدة كانت غالبًا ما تقتصر على قليل من البطاطس أو الأرز، قد نشرت فوقه قطرات الخل. فإذا تاق إلى التغيير، فأنه يتناول قبضة من (البقسماط) يتبعها باحتساء قدح من مياه الصودا. ولم تكن المعجزة أنه كان يبدو «كالمرمر المضاء من داخله»! وأنما المعجزة أنه لم يكن يبدو كهيكل عظمى لأحد الصينيين فى إقليم دهمته المجاعة! فإنه لكى يدفع عن نفسه شبح البدانة

البغيض، أقبل على لعب السيف والملاكمة وركوب الخيل والسباحة.. وعلى ذكر السباحة فإن هذا الرجل، الذى كان أعظم شعراء جيله، كان أكثر فخرًا بعبوره مضيق الدردنيل سباحة، من فخره بأشعاره الخالدة! وعندما كان يلعب الكريكيت، كان يرتدى سبعة أثواب معًا. ولكن الأثواب السبعة لم تكن تكفى لأن يتصبب منه العرق الذى يذهب بالدهن، ومن ثم فقد كان عليه أن يذهب ثلاث مرات كل أسبوع إلى حمام تركى، لكى يعالج جسده بالتطرية والتدليك!

معمل للأدوية.. وعش الغرام

وقد كان النظام الغذائى العجيب الذى اتبعه سببًا فى إفساد هضمه تمامًا. ولذا كانت غرفة نومه تعبق برائحة العقاقير والأدوية، من حبوب وسوائل وتركيبات خاصة.. بحيث كانت أقرب إلى أن تكون معملاً لأحد الصيادلة منها إلى عش غرام لأعظم عاشق عرفته الدنيا!



وكان يقض مضجع بيرون فى نومه كابوس مفزع، حتى لجأ إلى منومات الأفيون. ولكن حتى منومات الأفيون لم تنجح فى إيقاف أحلامه المزعجة. ولذا فقد احتفظ إلى جوار فراشه بمسدسين محشوين. وفى هدأة الليل، كان يصحو من نومه صارخًا صائحًا، مصطك الأسنان، ثم يذرع الغرفة طولاً وعرضًا وهو يلوح بالمسدسات والخناجر!

والدير القديم الذى كانت كوابيس الليل تدهم فيه اللورد بيرون، كان مسكونًا بأحد الأشباح، لراهب كان يعيش فيه واختفى من عهد طويل.. وقد أقسم بيرون أن ذلك الطيف المتشح بالسواد كان يمر به خلال الدهليز بخطوات واسعة وهو يرمقه بعين ذات نظرة مدمرة! وقد شاهد ذلك الطيف الرهيب قبيل زواجه المشئوم مباشرة. وبعد سنوات، فى إيطاليا، أقسم بيرون أنه رأى شبح الشاعر شيللى يسير فى إحدى الغابات.. بينما كان شيللى فى تلك اللحظة على بعد أميال من المكان. وكان بيرون يعلم هذا!

ومما يدعو إلى العجب، أن شيللى قد مات فعلا بعد هذا بقليل ـ حيث أغرقته عاصفة هبت على إحدى البحيرات ـ وأن بيرون هو الذى بنى بيديه المحرقة الجنائزية ثم أحرق الجثة!

وثمة خرافة أخرى كانت تطارد عقل بيرون: فإن عرافة من الغجر كانت قد أنذرته ذات يوم بأنه سيموت فى السابعة والثلاثين.

وقد مات بالفعل بعد عيد ميلاده السادس والثلاثين بثلاثة شهور! وكان بيرون يؤمن بأن لعنة مشئومة قد حلت على أسرته جميعها.

وقد أقسم أن عيد الميلاد السادس والثلاثين نحس على كل من يتصلون به بصلة الدم! وحتى الذين ترجموا لحياة اللورد بيرون من معاصرينا قد مالوا إلى موافقته على هذا الرأى..

فقد توفى والده فى عامه السادس والثلاثين، كما ماتت ابنة بيرون قبيل حلول عيد ميلادها السادس والثلاثين، بعد أن عاشت حياة تكاد تكون صورة طبق الأصل من حياة أبيها!

■ ■ ■

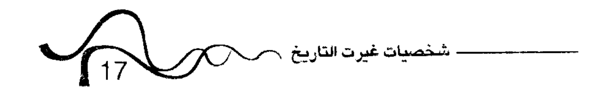
أينشتايــن



نشأة تنبىء بالفشل!

منذ سنوات قليلة مضت، كنت أسير برفقة صديق فى شوارع مدينة صغيرة فى ألمانيا الجنوبية، عندما استوقفنى صديقى فجأة مشيرًا إلى نافذة شقة صغيرة فوق محل بدال وقال: «أترى هذه الشقة الصغيرة؟ أنها المكان الذى ولد فيه اينشتاين!»

وفى ذلك اليوم تقابلت مع عم اينشتاين وتحدثت معه، فلم ألمح عليه أية امارة تدل على أنه رجل يختلف عن غيره من سائر الناس. وليس هذا غريبًا لأن «اينشتاين» نفسه، عندما كان صغيرًا، لم تكن تظهر عليه أية دلالة تنبىء عن ذكاء أو عبقرية أو تفوق، مع أنه يعتبر الآن زعيم جبابرة



العـقـول فى عـصـره ومن أعـمق المفكرين فى تاريخ العالم كله!

ومن بواعث الدهشة أنه منذ خمسين عامًا خلت كان اينشتاين طفلا خجولاً متأخرًا فى مداركه، يجد صعوبة كبيرة فى أن يتعلم كيف يتكلم! وكانت تبدو عليه سيماء الغباوة والبلادة، حتى لقد أطلق عليه المعلمون فى المدرسة: «الغبى!».. بل أن والديه كانا يعتقدان أن ادراكه أقل من المستوى الذى يجب أن يكون عليه من كان فى مثل سنه..

لذلك كان من دواعى دهشة اينشتاين أن يستيقظ يوما منذ سنوات قليلة مضت، ليرى نفسه وقد أدرج اسمه بين أسماء أشهر علماء الأرض!.. ويكاد يكون من الصعب أن نصدق أن أستاذا فى الرياضة يصبح اسمه من ألمع الأسماء التى تحتل مكان الصدارة من صحف القارات الخمس جميعًا.. والواقع أن اينشتاين نفسه يعترف بأنه لا يفهم سببًا لكل هذه الشهرة، كما يعجز الكثيرون عن ادراك سر ذيوع صيته إلى هذا

الحـد الذي لم يسـبق له مـثـيل فى تاريخ الجنس البشرى!

زاهد فى الشهرة والترف!

ويبدو اينشتاين فى تصرفاته الخاصة غريبًا غرابة النظرية التى استحدثها وهى «نظرية النسبية»!.. فهو لا يضمر غير الاحتقار لكل ما اعتاد الناس التعلق به: كالشهرة، والثراء، والترف.. إلخ. من ذلك أنه كان ذات مرة يعبر الأطلنطى على ظهر باخرة كبيرة، فقدم له القبطان أكبر جناح فيها ووضعه تحت تصرفه.. ولكن اينشتاين رفض عرض القبطان، وفضل السفر فى أحقر غرفة فى قاع الباخرة على أن يقبل أية معاملة استثنائية خاصة!

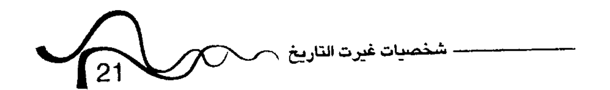
ولما بلغ اينشتاين الخمسين من عمره أغرقته ألمانيا فى عيد ميلاده الخمسينى بألقاب التشريف، وصنعت له تمثالاً نصفيا أقامته فى «بوتسدام»، كما أهدته منزلا ويختا بحريًا كعربون لحب أمته له

واعجابها الخالد به.. ولكن لم تمض سنوات قليلة على ذلك حتى انتزعت منه أملاكه المذكورة وأصبح اينشتاين يخشى العودة إلى وطنه وعشيرته!.. بل لقد قضى بضعة أسابيع فى بلجيكا خلف أبواب محكمة الرتاج والقضبان، وإلى جوار فراشه كان ينام أحد رجال البوليس كل ليلة لحراسته!

ومن أبرز صفات اينشتاين زهده فى الدعاية لنفسه، إلى حد أنه حين وصل إلى نيويورك ليتقلد منصب أستاذ الرياضة فى معهد الدراسات العليا فى «برنستون» كان كل ما يرجوه أن يتجنب مقابلة مخبرى الصحف أو التحدث إلى الصحفيين، ويبتعد ما استطاع عن الضوضاء والناس، ولذلك فقد حمله أصدقاؤه سرا من الباخرة التى كان يستقلها - قبل أن ترسو فى الميناء - إلى زورق نقله على عجل إلى السيارة التى انطلقت به قبل أن يضيق المستقبلون الخناق عليه!

ويقول اينشتاين أن هناك اثنى عشر شخصًا فقط من الأحياء استطاعوا فهم نظريته فى النسبية، بالرغم من أنه قد صدر فى شرح هذه النظرية ما يربو على تسعمائة كتاب!.. وهو يشرح نظريته العميقة بهذه العبارة السهلة المبسطة فيقول: «إنك إذا جلست إلى فتاة جميلة لمدة ساعة فإنه يخيل إليك أن الساعة قد مرت كدقيقة.. ولكنك إذا جلست على موقد من الفحم المشتعل لمدة دقيقة فإنه يخيل إليك أن الدقيقة قد مرت كساعة!».

هذه هى «نظرية النسبية».. وأننى أراها بالنسبة لى نظرية معقولة للغاية. فإذا كنت تشك فى صدق أقوالى فما عليك إلا أن تختبر ذلك بنفسك، وعندئذ فسأكون سعيدًا بأن أجلس أنا مدة ساعة إلى الفتاة الجميلة، وأدعك تجلس على موقد من الفحم المشتعل مدة دقيقة!



وعلى ذكر النساء، فإن اينشتاين تزوج مرتين. وقد رزق من زوجته الأولى بولدين تبدو عليهما سيماء الذكاء الوقاد والنبوغ.. وتعترف زوجة اينشتاين بأنها وإن كانت لم تتوصل بعد إلى فهم نظرية زوجها عن «النسبية»، إلا أنها قد تمكنت من فهم شيء هو أهم بكثير من هذه النظرية بالنسبة للزوجة: لقد أمكنها أن تفهم زوجها نفسه!.. وقد اعتادت أن تدعو بعض الأصدقاء إلى تناول الشاى فى منزلها بين الحين والآخر، فإذا طلبت من زوجها فى مثل هذه المناسبات أن يقابل المدعوين، صاح فيها بعنف: «لن أقابل أحدًا! لن أقابل أحدًا! إننى ذاهب من هنا.. إننى لا أستطيع العمل فى هذا المكان! ولن أتحمل بأى حال من الأحوال أن يقطع على أحد تفكيرى بعد الآن!».

ولكن «فراو اينشتاين»، زوجة العالم الكبير، تظل صامتة حتى تهدأ ثائرته، وتخف ثورة غضبه..

وعندئذ، وبشيء من الكياسة و«الدبلوماسية»، تنجح فى أن تقنع العالم النافر بالنزول من حجرته ومقابلة ضيوفها، وتناول قدح من الشاى معهم، وبذلك تعاونه على أن يتخفف بعض الوقت من عمله المرهق المتواصل!

وتقول زوجة اينشتاين أن زوجها مغرم بالنظام فى عمله وطريقه تفكيره، ولكنه مع الأسف ليس مغرمًا بالنظام فى طريقة حياته.. فهو يعمل ما يشاء، فى أى وقت يشاء!.. وعنده قاعدتان ينصح الناس باتباعهما فى حياتهم الخاصة: الأولى هى أن لا يسير المرء على أية قاعدة كانت!.. وأما القاعدة الثانية فهى أن يستقل الإنسان دائمًا بآرائه عن آراء الآخرين، فلا يتقيد بها..

كان زاهدًا بسيطًا؟

واينشتاين يتوخى البساطة المطلقة فى حياته: فهو يخرج مرتديًا ملابس قديمة كلها تجاعيد، نظرًا لعدم كيها! وقلما يضع قبعة على رأسه.. ويحلو له

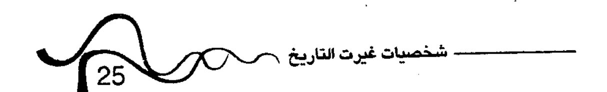
الغناء والصفير وهو فى الحمام.. كما يحلق ذقنه وهو غائص فى الماء فى حوض الاستحمام.. ولا يحب استعمال صابون خاص للحلاقة، وإنما يستعمل فيها الصابون العادى الذى يستعمله فى حمامه.. فإن هذا الرجل الذى يحاول فك طلاسم الوجود وحل عقد الكون المحيرة لا يتردد فى القول بأن استعمال الرجل لنوعين من الصابون، واحد للحلاقة وآخر للحمام.. يزيد الحياة تعقيدًا!

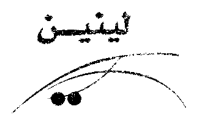
وعندما رأيت اينشتاين كان التأثير الذى تركه فى نفسى هو أنه رجل فى غاية السعادة.. والواقع أن نظريته الفلسفية عن السعادة لتفوق عندى بمراحل نظريته عن «النسبية»، لأننى أعتقد أنها فلسفة رائعة: فهو يقول أنه سعيد لأنه لا يريد شيئًا من أحد، ولا يحتاج إلى أحد.. فهو لا يريد المال، ولا الألقاب، ولا الثناء والاطراء. وهو يصنع سعادته ويكون عناصرها من أشياء غاية فى البساطة: عمله، والعزف على الكمان، والتنزه فى قاربه الصغير!

ويجد اينشتاين فى العزف على الكمان سعادة لا تعدلها سعادة أخرى فى الحياة.. فهو يقول أنه دائم التفكير فى الموسيقى، وأنه يحلم بها فى يقظته..

ومن الطرائف التى تروى عنه أنه كان ذات مرة راكبًا الترام فى برلين، فأعطى (الكمسارى) قطعة من النقود، فسلمه هذا التذكرة ورد إليه باقى نقوده. فلما أحصى اينشتاين النقود راجع (الكمسارى) واتهمه بأنه لم يرد إليه الباقى مضبوطًا!.. فأعاد الرجل عد النقود وتبين أنه لم يخطىء! فسلمها إلى اينشتاين ثانية قائلاً: «ان الأمر المتعب فيك هو جهلك المطبق بالأرقام!».

***



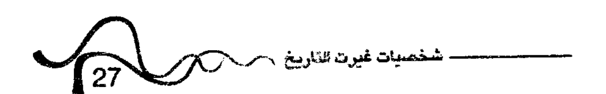


معبود شعبه.. وزوجته!

أريد أن أقص عليك بعض الوقائع غير المعروفة عن رجل مات منذ أكثر من خمسة وعشرين عامًا، ومع ذلك فإن مدينة عدد سكانها ٧٠٠ ألف نسمة سميت باسمه تشريفًا له، ومائة مليون من الناس يعتبرونه راعيهم القديس!

كان اسم هذا الرجل «لينين». وقد بدأ فى روسيا أعظم تجربة اقتصادية عرفها العالم.. تجربة لابد وأن يكون لها تأثير عليك وعلى كل فرد آخر فى العالم تقريبًا!

كان لينين قصير القامة، أصلع الرأس، متغضن الوجه، وكانت قدماه من القصر بحيث لا تكادان تلمسان



الأرض إذا جلس على مقعد!.. ولم يكن يهتم بمظهره على الإطلاق، وكانت سراويله عادة طويلة للغاية، وأنفه مقوسًا قليلاً إلى أعلى، وباحدى عينيه حول. ويغلب على الظن أنه لم يلبس فى حياته قبعة من الحرير أو سترة رسمية «ردنجوت». وكان سعيدًا فى زواجه، وقد احبته زوجته إلى حد أنها رفضت أن تتركه عندما نفى، وعليه فقد رافقته إلى منفاه لكى تسهر عليه وتعتنى به..

وعندما أبعد إلى سيبيريا كان عنده متسع كبير من الوقت مكنه من أن يحذق لعبة الشطرنج ويصبح خبيرًا بها، بحيث كان فى مقدوره أن يؤدى فيها عدة مباريات فى آن واحد. بل أنه أولع باللعبة إلى حد أنه صار يلعبها بالمراسلة مع أصدقائه الذين تفصله عنهم مسافات بعيدة!

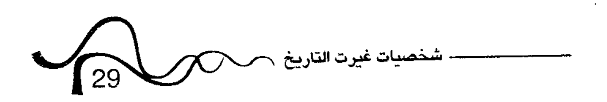
ثائرًا بالصدفة!

وقد كان لينين فى حداثته طفلاً جادًا مكتئبًا، يندر أن يلعب مع أطفال آخرين، بل أنه لم يشترك

فى مباريات رياضية قط. وعندما نما وأصبح رجلاً لم يكن ليعير أى اهتمام للموسيقى أو الشعر أو الدين، ولكنه درس القانون وأتقن أربع لغات هى: الفرنسية والألمانية والروسية والإنجليزية!

وقد شنقت الحكومة الروسية أخاه لأنه كان يدير مؤامرة لقتل القيصر ألكسندر الثالث، وبعدئذ نفت الحكومة لينين نفسه لأرائه المتطرفة. واختاروا لمنفاه مدينة صغيرة فى سيبيريا المتجمدة.. وهناك رأى لينين بعينيه الفقر الشنيع الذى يرزح تحته الفلاحون الروس، فقد كانوا من الفقر بحيث لم يكن فى مقدورهم أن يأكلوا اللحوم إلا فى أيام الأعياد الدينية. أو بتعبير آخر كانوا يأكلون اللحم نحو عشرين مرة فى العام فقط!

وأثناء المجاعة الكبرى التى حدثت فى عام ١٨٩١، وعندما مات الملايين من الفلاحين الروس المعوزين، من الجوع والتيفوس والكوليرا، أيقن لينين أن شيئًا



أساسيًا يجب أن يعمل.. ومنذ ذلك الوقت أصبح ثوريًا ملتهب النفس سخطًا وحماسة!

لينين يتنكر فى شكل امرأة!

وأثناء الخمسة والعشرين عامًا التى أعقبت ذلك التاريخ، هام لينين على وجهه من بلد إلى آخر.. وعاش فى أوقات مختلفة بين ألمانيا والنمسا وفرنسا وبولندا وسويسرا وإنجلترا. وأثناء اقامته فى إنجلترا كان كثيرًا ما يذهب ويجلس ساعات متوالية خاشعًا بجوار قبر «كارل ماركس» أب الاشتراكية!

ولكى يتجنب الاعتقال كان يتجول متنكرًا، أحيانًا فى زى فلاح، أو بحار، أو ساعى بريد، وأحيانًا أخرى فى زى امرأة! وكان يحمل فى أسفاره دائمًا حقيبة ذات قاع مسحور يحفظ فيها أوراقًا سرية ووثائق اتهام. وفى بعض الأحيان كان يدفن مستنداته السرية فى حديقة الخضروات بمنزله ويزرع فوقها البصل والكرنب!.. وقد ألف أحد كتبه الثورية وهو فى

السجن، ولكى يتحاشى أن يضبط استعمل فى كتابته اللبن بدلا من الحبر - فلم تكن الكتابة تقرأ إلا بعد نقع الورق فى الماء الساخن - كما علم تلاميذه استعمال الحبر غير المنظور عند الكتابة إليه.. وحين كان يصله أحد هذه الخطابات غير المنظورة، كان يطلب إلى حارس السجن أن يأتيه بالشاى.. وعندئذ، ما يكاد الحارس يدير ظهره حتى يغمس لينين الخطاب فى الماء الساخن ويقرأه!

كان دكتاتورا ولكنه كان زاهدا

وفى نوفمبر سنة ١٩١٧ أصبح لينين دكتاتور روسيا، وصادر جميع الملكيات الخاصة.. ففر أصحاب الملكيات الكبيرة مذعورين عندما استولى الفلاحون على أملاكهم. ومزق هؤلاء قطعًا نادرة جميلة من الأبسطة وصنعوا منها أحذية!.. كما أخذوا الأوانى التى لا تقدر بثمن والمصنوعة بأيدى أساتذة فن الزخرفة الخزفية فى أوروبا واستعملوها أوعية لحفظ الخل!

وكانت روسيا فى ذلك العهد جائعة تقريبًا، فكان لينين يرفض أن يضع سكرًا فى الشاى الذى يشربه لأن الآخرين لم يكونوا يستطيعون الحصول على السكر. ومع أنه كان الحاكم المطلق لروسيا إلا أنه لم يسمح لنفسه بأبسط أنواع الكماليات. وقد حكم روسيا دون موظفين من السكرتيرين. ويندر أن كان يملى خطابًا، وإنما كان يكتب أكثر خطاباته بنفسه.. وكان يعمل من ثمانى عشرة إلى عشرين ساعة فى اليوم!

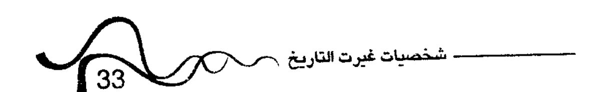
يتفننون فى تخليد ذكراه!

وبعد مضى خمس سنوات أخذ يشكو من مرض تصلب الشرايين، ثم أصيب بالشلل، وفقد القدرة على الكلام، فكان عليه أن يتعلم كيف يتكلم من جديد كالطفل! وقد شلت يده اليمنى فتعلم كيف يكتب بيده اليسرى. وظل يكافح الموت كفاح اليأس مدة عامين، مكررًا القول: «ان هناك أعمالاً كثيرة جدًا على أن أنجزها».

إن صـورته مـعلقـة اليـوم فى كل بيت وكل مـصنع وكل نـاد للعـمـال فى جـمـيع أنحـاء روسـيـا.. ويضع الخـبـازون على الكعك رسـمًـا يشـبـهـه.. ويزرع البستانيون زهورهم بطريقة تجعلها إذا تفتحت فإنما تتفتح على شكل يشبه صورته!.. كما ينسج صانعو الأبسطة صـورته عليـهـا.. وفى روسـيـا مـلايين من الناس يعبدونه كما لو كان إلاهًا! ويتناقل الفلاحون الروايات عن مـعـجـزات عـودته من قـبـره ليـسـاعـد العمال الذين تصادفهم المتاعب فى بعض الظروف!

ويرقـد جـسـد لينين الآن مـحنطًا فى وعـاء من الزجاج، ومن المرجح أن مئات من الحجاج يمرون فى اللحظة التى تقرأ فـيهـا هذه السطور أمـام جثمـانه حـاسـرى الرؤوس، فـإن مـا يقـرب من الألف نسـمـة يشـرفـونه بهـذه الزيارة كل يوم.. وفى هـذه اللحظة بالذات يقف الجنود الحمر بحرابهم يحرسون جثمان الرجل الذى كان رائد عهد جديد فى تاريخ العالم.

***



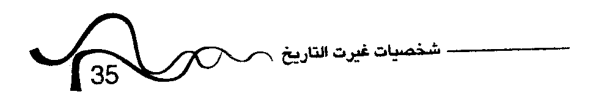




الرجل الذى غير حياتنا!

لقـد كـان من حـسن حظى، منذ سنوات قليلة مـضت، أن أقضى سـاعـة من الزمن مع رجل كـان له تأثير عميق فى حياتك.. فقد غيـر العالم الذى تعيش فيه، وجعل فى مقدورك أن تبعث برسـالة حول العالم فى سبع ثانية! كما جعل فى مقـدورك أن تجلس فى منزلك وتدير زرًا فى جـهـاز اللاسلكى الذى تقـتنيـه فتسمع الملك يتحدث من قصـر بكنجهام، أو تسـتمع إلى إحدى الفرق الموسيقية الشهيرة وهـى تعزف مثلاً أنغام «الدانوب الأزرق» السـاحرة!

والاعتقاد السـائد أن مـاركونى ايطالى الجنسيـة. ولكن الحـقـيقـة أن أباه فـقط كـان إيطاليـا، أما أمـه



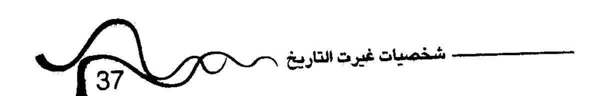
فكانت ايرلندية، وكان منزلها فى لندن. وقد أكسب الدم الأيرلندى ماركونى ذلك الشعر الخفيف والعينين الزرقاوين، فكان يبدو أقرب كثيرًا إلى الإنجليزى منه إلى الإيطالى. وكان يتكلم الإنجليزية بطلاقة ولكن بلهجة «لندنية» خفيفة. كما كان يضع - على عادة بعض الأنجليز - منظارًا مفردًا «مونوكل» على عينه اليسرى، لأنه فقد - مع الأسف - عينه اليمنى أثر حادث سيارة وقع له فى عام ١٩٢٧.

وبينما كنت جالسًا أتحدث إلى هذا الرجل، الهادئ الصوت، الوديع، المتواضع، كان من الصعب على أن أصدق أننى كنت فى حضرة رجل من أعظم الرجال الممتازين فى العالم!.. وكنت قد قرأت منذ سنوات، وأنا بعد حدث صغير أعيش فى ولاية «ميسورى»، عن عالم كبير، فى إيطاليا أيضًا، كان قد اكتشف التلغراف اللاسلكى، وفى أحد أيام سنة ١٩٢٠ ذهبت مع «ليويل توماس» لتناول طعام الغداء فى مطعم من مطاعم لندن، حيث أمكننا سماع آلة

التقاط جديدة قيل أنها تسمى «جهازًا لاسلكيا»..
والآن، هذا هو يجلس أمـــامى ذلك الرجل العظيم
الذى جعل هذه المعجزات ممكنة.. لقد خيل إلى أنه
حلم!

حافزه الأول على هذا الاتجاه

وقد سألته: كيف بدأ اهتمامه باجراء تجارب
الراديو؟ فأجاب بأن السبب الأكبر لاهتمامه أنه وهو
شاب صغير كان يحلم بعمل شىء يمكنه من السفر
حول الأرض.. وعندما كان يسافر مع أمه من إيطاليا
لزيارة أهلها فى لندن، كان يتطلع من نافذة القطار
وهو ينهب أرض فرنسا، فتتألق أمام عينيه الجبال
المكسوة بالجليد، والأنهار المتدفقة، والقصور الزاخرة
بأقاصيص الحب والمناجاة.. ومنذ تلك المرحلة من
صباه ولد فيه حافز قوى وميل حقيقى للأسفار..
وقد شعر حين كبر بأنه، بإجرائه التجارب عن
الموجات الكهربائية، وتكريس حياته لبحوث التلغراف



اللاسلكى، تسنح له فرصة للسفر - تحت ظل السماء - إلى البلاد النائية!.. وقال أنه لم يكن من عادته أن يستطيع تركيز فكره فى العمل وهو جالس بين جدران غرفة مكتب ضيقة.. والواقع أن ماركونى انجز أغلب أبحاثه على ظهر يخته الذى كان أشبه بمعمل عائم. وقد بلغ من حبه للأسفار أنه عبر الأطلنطى سبعًا وثمانين مرة!

وعندما كان ماركونى لم يزل حديث السن جدًا، أمكنه أن يبعث برسالة لاسلكية عبر الحجرة فى بيته.. ثم تمكن من ارسال رسائل إلى مسافة ميلين، فضاعف ذلك من حماسته.. أما أبوه فقد صارحه بأنه إنما يضيع وقته هباء!.. ولكن بعد ذلك بسنين قليلة باع الشاب ماركونى امتياز بعض مخترعاته إلى الحكومة البريطانية بمبلغ ٥٠,٠٠٠ (خمسين ألف) ليرة، فكان تأثير ذلك على أبيه بالغًا. وقد سألت السنيور ماركونى ماذا فعل بذلك المبلغ الأول الذى كسبه باجتهاده، فقال لى أنه ذهب واشترى بالمبلغ

دراجة وبعدئذ عاد إلى عمله كالمعتاد.. لأن الحماسة التى كان يستشعرها وهو يقوم بتجاربه كانت أشد إغراء له من أى شىء يمكن شراؤه بالمال!

التجربة الحاسمة

وفى سنة ١٩٠١ أعتقد ماركونى أن حلم حياته العظيم قد أصبح وشيك التحقيق، فهرول يعبر المحيط الأطلنطى وكله أمل فى أن يتمكن من استلام رسائل لاسلكية وهو فى أمريكا، من محطة الارسال التى أعدها فى إنجلترا!

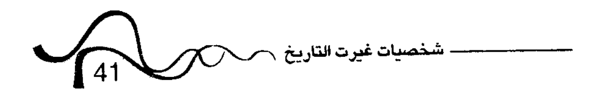
وهناك عند شاطىء «نيوفوند لاند» أرسل فى الجو طائرة صغيرة من نوع الطائرات الورقية، مصنوعة من الخيزران والحرير، لتقوم بوظيفة الصارى (الإيريال)، ولكن الريح مزقتها إربًا!.. وعندئذ أرسل فى الجو منطادًا (بالون)، ولكن الريح حطمت المنطاد وألقت به فى المحيط. وأخيرًا تحصل على طائرة يمكنها أن تستقر فى الجو، فلما ارتفعت فى الهواء بدأ يصيخ

سمعه.. أصغى طيلة ساعات، محتبس الأنفاس، ينتظر الإشارات التى كان مفروضًا وصولها من محطته الكائنة فى «كورنوول». ولكن شيئًا لم يصل. لم يكن هناك أدنى صوت! فأصيب بخيبة أمل عنيفة.. اعتقد أن تجاربه قد فشلت، وأن حلم حياته العظيم قد عصفت به الرياح!.. ولكن، فجأة، سمع «طقطقة» خافتة، وأخرى بعدها، وأخرى بعدها. نعم! هذه هى! الإشارة المتفق عليها بعينها، وكانت عبارة عن ثلاث علامات ترمز إلى حرف «س» كالتى يستعملها عمال التلغراف فى حروفهم الأبجدية اللاسلكية..

اتقد ماركونى حماسة، وعرف أن العمل الذى أتمه كان عظيمًا فى التاريخ! وتحرق شوقًا للاندفاع خارجًا وإذاعة النبأ على أسطح المنازل، ولكن هل يفعل ذلك؟ لا. فقد خشى ألا يصدقه الناس. ومن ثم احتفظ بسره لنفسه مدة ثمانى وأربعين ساعة، وعندئذ استجمع شجاعته وأرسل إلى لندن برقية بالحوادث التى جرت.. فكان لها دوى عظيم!

ونشرت صحف القارات الخمس القصة، فاستثارت غليان الأوساط العلمية العالمية. ان الإنسان ينتصر مرة أخرى على الزمن والأبعاد، ويخطو على عتبة عهد جديد.. فقد ولد التلغراف اللاسلكى الذى قدر له أن يغير العالم بالنسبة لك ولى!

وكم كان عمر ماركونى عندما صنع كل هذا؟ سبعة وعشرين عامًا فقط! وفى الحال بدأ يتسلم خطابات مرسلة إليه من أفاقين حاقدين، يشكون فيها مر الشكوى لأنهم تخيلوا أن الموجات الكهربائية ستمر خلال أجسامهم، وستحطم أعصابهم، وتجعل من المستحيل عليهم أن يذوقوا طعم النوم!.. وبلغ الأمر ببعض هؤلاء الأفاقين أنهم هددوا بقتل ماركونى.. وأنذره أحدهم، وكان ألمانيا، بأنه قادم إلى لندن لرميه بالرصاص!.. فحول ماركونى خطابه إلى «سكوتلنديارد» فمنعته الحكومة من دخول البلاد!



وقـد سـألت السنيـور مـاركـونى كم من الـوقت سيمضى قبل أن ترى أنت وأنا أجهـزة تليفزيون متقنة وعملية فى منازلنا .. فأجاب بأن هذا مرجح فى مدى عشـر سنوات وربما أسـرع من ذلك. وهذه الفتـرة قد انقضت كما نعلم، ولم يحل دون تقدم هذا الاكتشاف تقدمًا أعظم، إلا سنوات الحرب الأخيرة فقط.

***

قصة جعلته خالدًا!

ما هى أعظم قصة مغامرات كتبت؟ أهى «روبنسون كروزو»؟ أم «دون كيشوت»؟ أم «جزيرة الكنز»؟ من الطبيعى أن تختلف الآراء، ولكننى أعطى صوتى «للفرسان الثلاثة»!

فقصة الفرسان الثلاثة كانت من أكثر القصص رواجًا لمدة تقرب من قرن من الزمان. ولعل جدتك فى شبابها قد انفعلت تأثرًا بها عند رؤيتها على المسرح.

فضلاً عن أن مئات من الناس يقرأونها فى هذه اللحظة مترجمة إلى اثنتى عشر لغة مختلفة فى أربعة أركان الأرض!

والكسندر دوماس الذى كتب قصة الفرسان الثلاثة كان من أغرب القصصيين الذين غمسوا أقلامهم فى المحابر! وكان يحب أن يزهو بأن له أكثر من ٥٠٠ طفل غير شرعى!.. ولئن قيل أنه كان متفائلاً أكثر من الواقع فى تقديره، فإن الذى لا شك فيه أنه بالرغم من بدانته وقبح مظهره فقد كانت له مع النساء غزوات وغزوات!.. لكنه فى جميع غزواته كان يحرص على المباهاة فى كل مناسبة بأنه لن يتزوج قط!.. ويبدو أنه غالى فى زهوه ذات مرة إلى الحد الذى جعل إحدى معشوقاته تتحداه: فقد جعلت الوصى عليها يشترى جميع ديون ألكسندر بثمن زهيد. وفى تلك الأيام كان فى وسع الدائن أن يزج بمدينة فى السجن سدادا لديونه.. وهكذا فوجىء دوماس ذات يوم بمن يحيطه علما - فى أدب - بأن عليه أن يختار بين الزواج أو.. السجن!.. فتزوج!

من أصل زنجى!

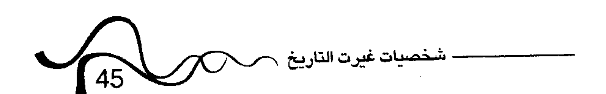
وحتى فى شكله كان دوماس يبدو غريبًا.. فإن ثلاثة أرباع فقط من دمه الذى يجرى فى عروقه كان

دما أبيض، أما الربع الباقى فكان دم عبيد!.. فقد كانت جدته لامه - «مارى دوماس» - جارية زنجية فى مزرعة لقصب السكر فى جزر الهند الغربية.. وكانت فقيرة وغير متعلمة، عاشت وماتت مغمورة فى ظلام دامس، دون أن يجول بخاطرها أن حفيدها سيكون موضع تكريم الأمراء والشعراء وأرباب الثراء، وأنه سيجعل اسمها ذائعًا فى جميع أنحاء العالم!

وكان ألكسندر دوماس يشبه جدته الزنجية كثيرًا.. فبرغم بشرته البيضاء كالثلج، وعينيه اللتين فى زرقة سماء الهند الغربية، فأن شفتيه كانتا غليظتين، وأنفه كبيرًا منبعجًا، وشعره - برغم صفرته الشديدة - كثا ملتفا (أكرت) مثل شعر جدته الزنجية العجوز!

كان يأكل بنهم.. وذو نزوات!

وكان دوماس شرها يحب الأكل الجيد، وكانت شهرته بكفاءته فى خلط «الصلصة» أو شى بطة،



كشهرته فى كتابة القصة!.. كان فى مقدوره أن يستهلك فى وجبة عددًا من الأطعمة المختلفة المحتوية على اللحوم والكافيار، مع ستة أنواع من الخضروات يختتمها جميعًا بكميات كبيرة من الجبن! أى كان يمكنه أن يأكل فى وجبة واحدة ما يزرى بما كان يأكله بسمارك. ومع ذلك، فبالرغم من نهمه لم يكن يشرب خمرًا، أو قهوة، أو يدخن على الإطلاق.. وإذا كان منهمكًا فى الكتابة فإنه لم يكن يأبه للطعام. بل كان أحيانًا ينسى أن يأكل على الإطلاق! فإذا ذهب أحد الأصدقاء لزيارته وهو مشغول بالكتابة فإنه كان يكتفى برفع يده اليسرى بالتحية ويستمر فى الكتابة بيده اليمنى!

ولكن كان له مزاج مرهف إلى أبعد حد فى نوع الورق والأقلام التى يستعملها: فمثلاً كان لا يكتب القصص إلا على ورق أزرق فقط، وبنوع خاص من الأقلام. فإذا كان يكتب شعرًا استعمل ورقًا أصفر ونوعًا آخر من الأقلام. وإذا كتب مقالاً لجريدة لم

يكن فى استطاعته أن يستعمل سوى ورق الكتابة الوردى اللون.. إلخ - ومهما كانت الظروف فإنه لم يستعمل الحبر الأزرق مطلقًا، فقد كان يصيبه بدوار! ولم يكن يستطيع أن يؤلف مسرحية وهو جالس إلى مكتبه. فلكى يكتب مسرحية كان عليه أن يضطجع على كنبة وتحت مرفقه وسادة لينة جميلة!

نزوات مضحكة ولاشك.. ولكن قبل أن نضحك منه دعنى أخبرك بما أنتج من مؤلفات: فقد كتب أكثر من مائة مسرحية! وكانت قصصه من الكثرة بحيث أن الطبعة التى ضمت مؤلفاته جميعها تحتوى اليوم على ١٢٠٠ مجلد. تأمل هذا! ألف ومائتا مجلد! ان هذا على وجه التقريب ضعف جميع مؤلفات جون جالزورثى، وجورج برنارد شو، وروبرت لويس ستيفنسون، و هـ. ج. ويلز، ورديارد كبلنج، ومارى روبرتس رينهارت، وزان جراى.. ضعفها مجتمعة!

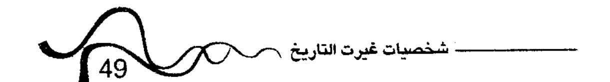
وقد ربح دوماس ما يزيد على المليون جنيه - أى أكثر بكثير جدًا من أى كاتب فى عصره! وفى الحقيقة أن قليلين جدًا من الكتاب فى التاريخ كله تمكنوا من الوصول إلى هذا الرقم القياسى - ومع ذلك فقد كان من الفقر، عندما مثلت أولى مسرحياته، إلى حد أنه لم يكن يملك (ياقة) يلبسها ليذهب إلى المسرح.. فصنع له ياقة بأن أخذ قطعة من ملاءة بيضاء ولبسها، فى تلك المناسبة التى كانت من أهم مناسبات حياته!

وقد كان هذا الرجل الجبار، الأشعث الهندام، يعبد أمه. وقبل أن تمثل أولى مسرحياته بثلاثة أيام فقط أصيبت أمه بشلل، فإذا به فى ليلة العرض الأولى التى سجلت أول انتصار له فى باريس، يهرع خارجًا من المسرح فى آخر كل فصل من المسرحية، ويعدو بأقصى سرعة تستطيعها ساقاه الطويلتان، إلى حدث رقدت أمه.. ليرى إذا كانت فى حاجة إلى

شيء. وفى تلك الليلة التى كانت فيها باريس كلها تتغنى باسمه، نام على حشية وضعت على الأرض عند قاعدة فراش أمه المريضة!

وكانت شخصيات كتب دوماس تبدو له حقائق مجسمة.. فكان يحلم بها، ويثرثر عنها، كما لو كانت لأشخاص أحياء! وقد كتب عنها بتوسع يستحوذ على كل مشاعرك. وكان يستغرق أحيانًا فى قصته استغراقًا تامًا فيضج بالضحك والنكات مع شخصيات رواياته كما لو كانت أشخاصًا حقيقية تجلس أمام مكتبه فعلاً. وأغلب القصصيين يرون فى الكتابة عملية «طحن» فظيعة.. ولكن دوماس كان «يستمتع» بالوقت الذى يصرفه فى نسج خيوط قصصه المحبوكة!.

وقد حبته الطبيعة بنشاط الملاكم «جاك دمبسى»، فطاف حول أوروبا بسيارة أجرة وعلى ظهر جواد! وكان يكتب أحيانًا خمس روايات فى وقت واحد، تظهر يومًا بعد يوم فى الصحف على حلقات متتابعة.



ولم يكن عنده وقت ليقرأ قصصه، ولكن كان يملك الوقت للمبارزة عشرين مرة بالسيف أو المسدس!

وعندما تقدمت به السن، أولع بالخمر، والنساء، والأغانى. لا! لا! إننى مخطئ: فهو لم يشرب الخمر، ولم يغن. ولكنه أغرم بالنساء إلى حد كبير!

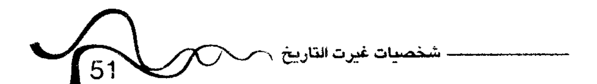
وإذا كانت باريس تمتاز بميزة، فهى سعة عقل أهلها .. ومع ذلك فإن مغامرات دوماس الغرامية كانت «حدثًا» مشهورًا، وصارت فضيحة حتى فى باريس.. حتى لقد انتهى الأمر بأن أعرض عنه ابنه ذاته مشمئزًا!

.. بل لقد ذهب صديق لزيارة القصصى الكبير فى عصر أحد الأيام، فوجده يكاد يختنق بين عشيقاته: فقد كانت احداهن جالسة على ركبته، وأخرى عند قدميه، وثالثة واقفة خلف مقعده وقد انحنت لتقبل شفتيه الغليظتين.. ولم يكن ثلاثتهن جميعًا يلبسن من الملابس ما يكفى لعمل لباس بحر محترم لعصفور صغير!

وعندما استنزفت الباحثات عن الذهب كل أمواله، هجرته فى استخفاف وازدراء.. فقضى دوماس شيخوخته فى فقر ووحدة واهمال.. حتى لقد اضطر إلى أن يرهن جواهره ومعطفه ليدفع إيجار المنزل. ولو لم يدفع له ابنه حساب البدال لتضور جوعًا! وقبل أن يموت بوقت قصير رآه ابنه يقرأ نسخة من الفرسان الثلاثة، فسأله: «ما رأيك فيها يا أبى»؟ فأجاب الرجل المسن: «لا بأس بها.. إنها جيدة».

جيدة؟ نعم، وأنا أيضا أقول أنها جيدة.. فإذا أردت أن تختبر ذلك بنفسك فتناول قصة الفرسان الثلاثة واقرأها ثانية.. لقد كتبت ملايين القصص منذ ظهور هذه القصة، ولكنها اضمحلت جميعًا وجر النسيان عليها ذيوله واندثرت، أما قصة الفرسان الثلاثة فخالدة. وإلى مئات قادمة من السنين سوف يجلس أولاد أولاد أولاد أولادك يقرأونها بشغف إذا ما جن الليل..

***





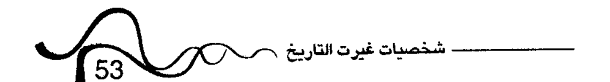


المقاتل الأعزل!

هناك فى الهند كان يوجد رجل صغير الحجم، أسمر اللون، يتدثر بملابس فضفاضة، ويرقد على سرير صغير، ويرفض أن يأكل، ويهدد بالصيام حتى الموت!

وإذا قدرناه بحساب المال، كان غاندى رجلاً فقيرًا.. فلو باع كل ما يملك فلن تساوى قيمته ثلاثة جنيهات، ولكنه كان أقوى من أى مليونير على الأرض!

ومن الناحية الجسمانية، كان ضعيف البنية، يرفض استعمال القوة والعنف.. ومع ذلك فإن تعاليمه وتأثيره الروحى، كانت أعظم بطشًا وقوة من مائة معركة فى ميادين القتال!



إن سكان الهند يبلغون سدس أهل الأرض جميعًا، ومع ذلك فقد ظل الهنود عدة قرون نائمين غافلين.. ثم إذا بذلك الرجل الهزيل، الذى كان وزنه أقل من مائة رطل، يوقظهم من سباتهم، ويوجه مداركهم إلى ما يكمن فيهم من قوة جبارة!

وهناك أمور كثيرة غريبة تروى عن غاندى، فمثلاً كان عنده «طاقم» من الأسنان الصناعية كان يحمله معه فى إحدى ثنايا ثيابه، ويضعه فى فمه عندما يريد أن يأكل فقط! وبعد فراغه من الأكل ينزع الطاقم من فمه، ويغسله، ثم يعيده إلى مكانه فى ثنية ملابسه..

وكان يتكلم الإنجليزية بلهجة أيرلندية، لأن أحد مدرسيه الأوائل كان أيرلنديًا، ولا يلبس إلا الملابس الفضفاضة المتواضعة.. لكنه فى فترة من الفترات عاش فى لندن عدة سنوات يلبس قبعة من حرير، ويغطى حذاءه بغطاء من الصوف (جيتر) ويمسك بعصا!

وقد تلقى غاندى دراسته العليا فى جامعة لندن وصار من رجال القانون، ولكنه فى أول مرة حاول فيها المرافعة فى ساحة المحكمة ارتعدت ركبتاه، وارتجف إلى حد أنه اضطر إلى الجلوس من شدة الارتباك والتلعثم!.. والواقع أن التوفيق لم يحالفه حين مارس المحاماة فى لندن، فكان فاشلاً فى حياته العملية فى تلك المرحلة من شبابه..

وعندما جاء إلى إنجلترا لأول مرة، قبل ذلك بسنين، جعله مدرسه الأيرلندى ينسخ «موعظة المسيح على الجبل» عدة مرات، كتمرين فى اللغة الإنجليزية ليس غير.. فأخذ غاندى يكتب ويعيد، ساعة بعد ساعة، هذه الآيات: «طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض.. طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون».. إلخ - فأحدثت هذه الكلمات أثرًا عميقًا فى نفسه.

ثم أرسل يومًا إلى جنوب أفريقيا ليحصل ديونًا ضخمة فحاول أن يطبق هناك فلسفة الموعظة على الجبل! وقد نجحت التجربة.. وتدفق المتقاضون على المهاتما غاندى لأنه كان يفض منازعاتهم بالطرق الودية خارج المحكمة، فيوفر بذلك عليهم الوقت والمال.. وسرعان ما أصبح دخل غاندى ثلاثة آلاف جنيه فى العام. وهكذا «ورث الودعاء الأرض»!

ولكن هل كان غاندى سعيدًا بنجاحه ودخله الكبير؟ كلا! لأنه كان يعلم بأن الملايين من بنى وطنه يعيشون فى فاقة. وقد رأى آلافًا منهم يموتون من الجوع، فظهر له إقبال الدنيا عليه رخيصًا وعديم الأهمية.. فما كان منه إلا أن تنازل عن كل أمواله، ونذر نفسه للفقر!.. ومنذ ذلك الوقت كرس حياته لمساعدة الفقراء والمعوزين..

ان عشر سكان الهند اليوم نصف أموات من الجوع.. وقد كانوا فى موقف ميئوس منه، حتى أن غاندى حاول اقناعهم بوقف التناسل فى عالم مفعم

بكل هذه التعاسة والفاقة!.. وقد راض غاندى نفسه على الجوع ليرى كيف يمكنه أن يعيش فى صحة جيدة وبأقل النفقات، فكان غذاؤه الرئيسى هو الفاكهة ولبن الماعز وزيت الزيتون!

نشأة فكرة العصيان المدنى!

وقد تأثر غاندى تأثرًا عظيمًا بتعاليم أحد الأمريكيين ويدعى «دافيد ثورو». وكان «ثورو» قد تخرج من جامعة (هارفارد) منذ مائة عام، وأنفق خمسة جنيهات فى إقامة «كوخ» لنفسه على شاطىء (وولدن بوند) المنعزل فى ولاية (ماساشوستس). وهناك عاش متنسكًا، ورفض أن يدفع الضرائب، فزج به فى غياهب السجن! وعندئذ وضع كتابًا عن «العصيان المدنى» قال فيه أن أحدًا لا يستطيع ارغام أى فرد على دفع الضرائب!.. ولم يعر الناس كتابه أقل التفات، ولكن غاندى قرأ الكتاب وهو فى الهند بعد ذلك بخمسة وسبعين عامًا وقرر أن يستخدم

أساليب «ثورو».. وكانت إنجلترا لم تبر بوعدها بشأن منح الهند الحكم الذاتى، فعمد غاندى - كى يعاقب إنجلترا - إلى تحريض سكان الهند على الامتناع عن دفع الضرائب، ولو أدى بهم ذلك إلى غياهب السجون.. كما حرض اتباعه على مقاطعة البضائع الإنجليزية. وعندما فرض الإنجليز ضريبة على الملح قاد غاندى اتباعه إلى البحر حيث كانوا يستخرجون الملح بأنفسهم!

وكان فى الهند نحو ٦٠ مليونًا من السكان موصومين، حسب الديانة الهندوكية، بوصمة الرجس الذى يحرم على أحد لمسهم (المنبوذين).. فما معنى هذا؟ لكى تفهم معناه اتخذ نفسك مثلاً، وافرض أنك تعيش فى الهند، وأن أجدادك منذ ألفى عام كانوا من المنبوذين المحرم لمسهم وفقًا للديانة الهندوكية.. فإن هذا يعنى أنك أنت أيضًا منبوذ محرم لمسك اليوم! ويصبح محكومًا عليك بأن تتعذب لأجل آثام ارتكبتها روحك فى حياة سابقة، فلا يسمح لك مثلاً

بأن تشرب من ماء بئر فى القرية، بل يتعين عليك أن تذهب وتشرب من ماء بعض الجداول الجانبية القذرة! ولا يقتصر الأمر على ذلك بل أن النفوس تعافك حتى لا تجرؤ على دخول حانوت بدال، وإنما يصبح عليك أن تقف فى الخارج وعلى مسافة كبيرة، كى يقذف إليك بالطعام من بعيد!

كيف كان يرى بشاعة اضطهاد المنبوذين؟

بل إنك إذا اعتبرت منبوذًا لا تستطيع أن تدخل إلى حرم محكمة، أو تتخرط فى مدرسة.. ولا يمكنك حتى السير على قدميك إلا على مسافة خمسمائة قدم من الطريق العام! وإذا حدث أن سقط ظلك على الطعام فإن الطعام يعتبر نجسًا غير صالح للأكل ويجب أن يعدم!

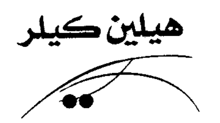
تصور أن فى الهند ٦٠ مليونًا من هؤلاء المنبوذين.. وأنهم كانوا يحيون فى أرهب وأتعس ظروف ممكنة فى العالم. وقد كرس غاندى حياته

للدفاع عن حقوقهم، حتى لقد تبنى بنتًا صغيرة من المنبوذين (المحرم لمسهم) ورباها على أنها ابنته!

ان ملايين من البشر تطلعوا إلى غاندى على أنه قديس.. وآخرين اعتقدوا أنه إله هندى متجسد.. ففى عالم مملوء بالجشع والحقارة والأنانية، لم يطلب هذا الرجل لنفسه شيئًا.. بل إنه أراد أن يموت ليتمكن الآخرون من الحياة!

وقد كان له ما أراد. ومات غاندى.. ولكن الله أراد له الخلود فأماته ميتة الشهداء!

***

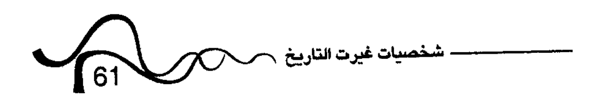


معجزة بشرية!

قال الكاتب الأمريكى الفكه «مارك توين» ذات مرة: «ان أدعى الشخصيات إلى الإعجاب والاهتمام فى القرن التاسع عشر كله شخصيتان: نابليون، وهيلين كيلر!».

وهيلين كيلر هى المرأة العمياء الصماء البكماء، التى أثبتت أنها - برغم عاهاتها الثلاث الرئيسية - أنفع للإنسانية من كثير من البشر!

وقد قال مارك توين عبارته المذكورة يوم أن كانت هيلين كيلر لا تعدو الخامسة عشر من عمرها.. وهى ماتزال حية ترزق إلى اليوم وقد نيفت على الثمانين، احتفظت خلالها بمكانتها.. فهى فى الواقع من



أعجب شخصيات القرن العشرين، كما كانت من أعجب شخصيات القرن التاسع عشر!

وهيلين كيلر عمياء تمامًا، ولكنها قرأت مع ذلك من الكتب أكثر بكثير مما استطاع كثير من المبصرين أن يقرأوا! ولعلها قرأت مائة ضعف ما قرأه الرجل العادى المتوسط.. بل أنها «ألفت» سبعة كتب، كما ألفت فيلمًا سينمائيًا عن حياتها ومثلت فيه!

وهيلين كيلر صماء تمامًا مثلما هى عمياء تمامًا، ومع ذلك فهى تستمتع من الموسيقى بما يفوق حظ الكثيرين من ذوى الآذان السليمة..!

وقد سلخت من عمرها تسع سنوات وهى بكماء لا تنطق حرفًا!.. ومع هذا ألقت محاضرات فى كل ولاية من الولايات المتحدة الأمريكية، وطافت بجميع بلاد أوروبا وبعض بلاد أفريقيا.

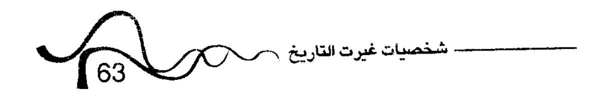
إنسانة.. بلا حواس!

وعندما ولدت هيلين كيلر، كانت طفلة عادية من كل وجه.. فلما صار لها من العمر سنة ونصف.

(كانت خلالها تسمع وترى، وتوشك ان تتكلم) . حل بها مرض أصابها بالصمم المفاجىء، وبالبكم، والعمى، حتى صارت عبارة عن كتلة من اللحم الحى.. مجردة من كل حواس إنسانية!

ثم أخذت تنمو وتكبر وكأنها حيوان متوحش فى غابة.. فهى تحطم كل شىء لا يروق لها، وتحشر الطعام فى فمها بيديها كلتيهما.. وإذا حاول أحد أن يردها عن ذلك، انطرحت على الأرض وراحت ترفس وتضرب الأرض محاولة أن تصرخ، ولكنها لا تستطيع!

وكتب والداها تحت تأثير يأسهما المفجع إلى معهد «بير كنز» للعميان فى مدينة بوسطن، ملتمسين ارسال معلمة خاصة لابنتهما.. وهكذا دخلت «آن مانسفيلد سوليفان» فى حياة هيلين كيلر وكأنها ملك كريم صور من نور وأمل. وكانت «آن» فى ذلك الوقت لا تعدو العشرين من عمرها حين شرعت فى تلك المهمة العسيرة التى بدت مستحيلة! وهل هناك أشق



من تعليم تلميذة عمياء، وإلى عقد الصلة بينها وبين العالم الخارجى؟

لكن «آن» كانت كبيرة القلب، صقلتها التجارب المرة.. فهى فتاة يتيمة، دخلت مع أخيها ملجأ الأيتام فى «تيوكسبرى» بولاية «ماساشوستس». ولم يكن لهما مكان، فكانا يبيتان فى غرفة الموتى، وهى غرفة يوضع فيها من يموتون ريثما يحل ميعاد دفنهم! ولم يتحمل شقيقها هذه الحياة فقضى نحبه بعد ستة أشهر.. أما هى فأوشكت على العمى فى سن الرابعة عشرة، فأرسلت إلى معهد بيركنز فى بوسطن كى تتعلم القراءة بأصابعها، بيد أن القضاء لطف بها فتحسن بصرها، ولم يصبها العمى إلا بعد ذلك بنصف قرن من الزمن!

«الملاك» من عند الله!

وليس فى الإمكان شرح المعجزة التى أحدثتها «آن» فى حياة هيلين كيلر، فإن ذلك كان عملاً خارقًا

للعادة.. لم يسبق له مثيل.. وقد فصلته هيلين كيلر نفسها فى كتابها عن نفسها الذى سمته «قصة حياتى». ومن يقرأ هذا الكتاب، يرى مبلغ السعادة التى شعرت بها هيلين فى أول مرة حين اكتشفت أن هناك لغة إنسانية يمكنها أن تتفاهم بها مع الناس! ومن تلك اللحظة بدأت تحب الحياة، وتتلهف فى نهاية كل يوم على مطلع اليوم الجديد الذى يليه..

فلما بلغت هيلين العشرين من عمرها كان تعليمها قد تقدم جدًا، فدخلت ومعها معلمتها كلية «رادكليف». وفى هذه الأثناء استعادت ملكة الكلام، وكانت أول جملة نطقتها:

- أنا لم أعد خرساء!

وهى الآن تتكلم كلامًا عاديًا، لا تشوبه إلا شبه لكنه أجنبية ظريفة. وهى تكتب كتبها ومقالاتها للصحف على آلة كاتبة بحروف «برايل» أو النقط البارزة. وإذا ما أرادت أن تصحح بعض الخطأ على

الهامش، استخدمت دبوس شعرها فى إحداث بعض الثقوب على الورق!

غيرت فكرة العالم عن العميان!

وتعيش هيلين فى ضاحية «فورست هيل» قرب مدينة نيويورك. ولا يبعد منزلى عن مكان سكناها سوى مسافة قصيرة، وكثيرًا ما رأيتها - أثناء تنزهى مع كلبى الصغير - تتمشى فى حديقة بيتها مع كلبها الذى تقتنيه للحراسة.. وقد لاحظت عليها أنها تحدث نفسها أثناء النزهة، ولكن لا بشفتيها كما نفعل نحن، بل باشارات من أصابعها! وقد أخبرتنى سكرتيرتها أنها على خلاف الشائع عن العميان زورًا وبهتانًا، لا تتمتع بحاسة للاتجاه أدق من حواسنا، فكثيرًا ما تضل طريقها فى بيتها إذا بدلت مواضع قطع الأثاث.. كما أن حاسة الشم عندها كالتى عندنا لا أكثر.

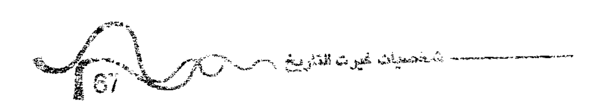
أما حاسة اللمس فهى على العكس مرهفة جدًا عندها، حتى أنها تستطيع أن تفهم ما يقوله

أصدقاؤها إذا وضعت أناملها برفق على شفاههم وهم يتكلمون!.. وتستطيع أن تستمتع بالموسيقى إذا وضعت أناملها على خشب الكمان أو «البيانو» أثناء العزف.. وبالطريقة نفسها تستمع إلى المذياع بأن تتحسس التموجات الصادرة عن بوقه.. وتستمع إلى الغناء بأن تضع أناملها على حنجرة المغنى أو المغنية!

وإذا صافحتها بيدك اليوم، ثم قابلتها بعد خمس سنوات، تذكرتك فورًا بمجرد لمسها يدك.. بل وعرفت فورًا أن كنت مسرورًا أو منحرف المزاج!

وهى تعشق السباحة والتجديف، وتهوى التوغل فى الغابات ممتطية صهوة جواد!.. كما تجيد لعبة الشطرنج بأدوات لعب صنعت خصيصًا لها.. وتلعب «لعبة الصبر» بالورق ذى الأرقام البارزة، وفى الأيام الممطرة تلازم بيتها وتقطع الوقت بحبك الصوف أو نسج «الكروشيه»..

ومع أن العدد الغالب منا يعتقد أن أشد كارثة تصيب الإنسان هى ابتلاؤه بالعمى، إلا أن هيلين كيلر



قد أقامت الدليل فى مذكراتها على أن الصمم كارثة أفدح كثيرًا من العمى! ففى ساعات الظلام الحالك والصمت البالغ، اللذين يفصلانها عن العالم ويجعلانها بمعزل عنه، لا تتوق إلى شىء قدر اشتياقها إلى سماع همسة بشرية تنبعث من فم صديق.. فالأصوات فى اعتقادها أهم كثيرًا للإنسان من الأشكال والألوان!

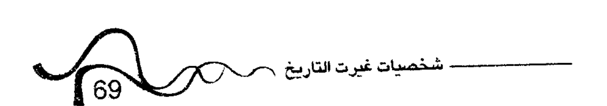
***



مجد.. ودمـوع!

لم يلق أحد بالا إليه وهو على قيد الحياة.. بل أن اسمه ظل شبه مجهول خلال المائة عام التالية لوفاته! ولكن منذ ذلك التاريخ حتى اليوم كتبت عنه آلاف الكتب، وملايين الكلمات، وأثار اسمه من التعليقات على أدبه وشخصه أكثر من أى أديب آخر فى تاريخ العالم.. بل أن آلافًا من الناس «يحجون» كل سنة إلى المكان الذى ولد فيه!

وقد زرت أنا تلك البقعة - ستراتفورد أون أفون - عام ١٩٢١، وتعمدت أن أذرع الحقول الممتدة منها إلى قرية «سلاتارى» القريبة، سالكًا نفس الطريق الذى كلت من السير فيه قدما الشاب الريفى وليم



شكسبير كلما مضى لمقابلة محبوبته «آن هويتلى»!..
ترى هل كان يخطر بباله يومئذ أن اسمه سوف يقرع أسماع الأجيال فى إطار من المجد؟.. وهل كان فى وسعه أن يصدق أن حبه المذكور، الجميل، المثالى، كان مصيره الأسى والحسرة.. وسنوات من الندم؟

زواجه.. الإجبارى!

ذلك أنه مما لا شك فيه أن مأساة حياة شكسبير إنما كانت زواجه!.. كان قد أحب آن هويتلى، لكنه فى الساعات المتأخرة من الليالى المقمرة كان يمتحن الأقدار باللهو مع فتاة أخرى، هى «آن هاثاواى»!.. فلما علمت آن هاثاواى أن حبيبها قد استخرج رخصة زواج تمهيداً لعقد قرانه على غيرها، صعقت.. جنت فزعًا ويأسًا!.. وفى نوبة يأسها اندفعت تطرق أبواب جيرانها، لتبكى عارها أمامهم، وتوضح لهم لماذا ينبغى على شكسبير أن يتزوجها!.. وأحس جيرانها البسطاء الطيبون بالخزى الذى

تعانيه التعسة، واستبشعوا فعلة الشاب، فمضوا فى اليوم التالى مباشرة إلى دار العمدة والجهات المختصة وشرعوا فى اتخاذ الإجراءات الرسمية لتزويج شكسبير من ضحيته «آن هاثاواى»!

وكانت العروس تكبر عريسها بثمانية أعوام، ومنذ البداية كان زواجهما رباطًا تعسًا. وقد حذر شكسبير فيما بعد قراء رواياته الرجال من أن يتزوجوا نساء يكبرنهم فى السن!.. والواقع أن شكسبير لم يقض مع زوجته إلا وقتًا ضئيلاً للغاية، أما أكثر أيام حياته الزوجية فقد كان يقضيها فى لندن، بحيث لم يكن يعود إلى أسرته إلا نحو مرة كل عام!

والداه وابنته وحفيدته.. أميون!

وتعتبر بلدة «ستراتفورد أون أفون» اليوم من أجمل بلدان إنجلترا، بحدائقها الغناء، وبيوتها الصغيرة الأنيقة، وشوارعها الملتوية الظريفة.. لكنها فى أيام شكسبير كانت قذرة، يعمها الفقر، وتجتاحها

الأمراض والأوبئة ـ إذ لم يكن فيها أنابيب للمجارى ـ وكانت الخنازير تعيث فى شوارعها الرئيسية فسادًا وتلتهم الفضلات. وقد حكم مرة بغرامة على والد شكسبير ـ الذى كان من موظفى البلدة الرسميين ـ لأنه ألقى خارج بابه كومة من مخلفات (الاسطبل)!

ولو عقدنا مقارنة بين عصر شكسبير وعصرنا الحاضر، لأدركنا أننا نعيش الآن فى أيام رخية هنيئة بالقياس إلى تلك الأيام.. ففى زمن شكسبير كان نصف سكان البلدة يعيشون على البر والإحسان، كما كان أكثرهم أميين، بل أن والد شكسبير ووالدته وأخته وابنته ثم حفيدته.. كانوا جميعًا يجهلون مبادئ القراءة والكتابة!

ومن عجائب المفارقات أن الرجل الذى قدر له أن يصبح عنوانًا لقوة ومجد الأدب الإنجليزى، اضطر إلى ترك المدرسة وهو بعد فى الثالثة عشرة، كى يعمل ويعين أباه الفلاح فى حلب البقر، ورعاية الماشية، وصنع الزبد، ودبغ الجلود!

ثم ضاف بحياة الريف فهاجر إلى العاصمة، حيث اشتغل حارسًا للجياد والعربات أمام أبواب المسارح.. ثم انتقل إلى داخل المسارح حين احترف التمثيل.. فلم تنقض عليه خمس سنوات حتى كان يربح دخلا لا بأس به من مهنته الجديدة، حتى لقد اشترى أسهمًا فى مسرحين، وصار يقرض المال مقابل فوائد عالية!.. وفى تلك الفترة بلغ ايراده نحو ثلاثمائة جنيه فى السنة (مع ملاحظة أن القوة الشرائية للنقود كانت يومئذ أكبر منها اليوم بنحو اثنى عشر ضعفًا!).. ثم لم يبلغ شكسبير الخامسة والأربعين حتى كان دخله يتراوح حول الأربعة آلاف من الجنيهات!.. وحين مات كان معدودًا من الأغنياء بحسب مقاييس ذلك العصر..

ولكن، كم من المال تحسبه ترك لزوجته فى وصيته؟ ولا بنس واحد! لم يترك لها غير سرير نومه المستعمل.. وحتى هذا لم يفكر فيه إلا فى آخر لحظة، فكتبه حشرًا بين السطور بعد أن انتهى من صياغة الوصية!

وبعد وفاته بسبع سنوات نشرت مسرحياته لأول مرة فى صورة كتب.. وأنت تستطيع اليوم الحصول فى نيويورك على نسخة من تلك الطبعة الأولى مقابل مبلغ مائتين وخمسين ألفا من الجنيهات! ـ مع أن مؤلفها شكسبير نفسه لم يقبض أجرًا على بعض مسرحياته الخالدة ذاتها ـ مثل هملت، أو مكبث، أو حلم ليلة صيف ـ أكثر مما يوازى الآن مائة جنيه للواحدة!

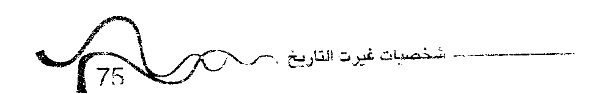
وقد راجت فى وقت من الأوقات شائعات ـ وألفت فى ذلك عشرات من الكتب ـ تزعم أن كاتب مسرحيات شكسبير هو سير «فرنسيس بيكون» وليس شكسبير، وأن هذا الاسم الأخير ما هو إلا اسم وهمى مستعار اتخذه بيكون ليستتر وراءه، خجلاً من أن يكتب نبيل مثله فى الحب، ويمثل ما يكتبه على المسارح!.. وبالتالى تزعم تلك الشائعات أن شكسبير شخص خيالى لم يوجد أصلاً!.. لكننى

سـألت فى ذلك البـاحث المحـقق «دكـتـور س. أ. ثاننباوم»، الذى ألف عدة كتب عن شكسبير، فقال أن هناك أدلة قاطعة تؤكد أن مؤلف مسرحيات شكسبير هو «وليم شكسـبـيـر» الذى ولد وعاش زمنًا فى بلدة «ستراتفورد أون أفون»!

يقدرون أمواله.. لا أدبه!

وقد طالما وقفت أمام قبـر شكسـبـيـر، أردد تلك العبارات المفزعة التى كتبها هو على قبر أحد أبطال رواياته: «أيها المار، ترفق فلا تحفر هذا التراب.. فلتباركك السماء إذا تجنبت المساس بهذه الأحجار، ولتلعنك إذا جرؤت على تحريك عظامى!».

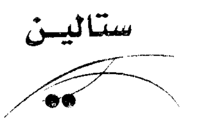
وعندمـا مـات شكسـبـيـر دفن فى كنيسـة بلدته الصغيرة «ستراتفورد»، أمام منبر الواعظ.. فهل أعطوه مكان الصـــدارة والشـــرف ذاك تقـــديرًا لعبقريته؟ كلا، بل أن الشاعر الذى صار فيما بعد قطب الأدب الإنجليـزى وعمـاده الأول، إنما دفن فى



تلك الكنيسة لأنه كان يقرض الأموال لأهل بلدته..
ولو لم يفعل ذلك مبتكر شخصية المرابى شايلوك - تاجر البندقية - لكانت عظامه اليوم ضائعة المعالم فى قبر لا يعرف أحد مكانه!

***

ستالين

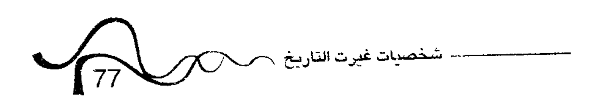


الرجل الذى حكم ربع مليار نسمة!

إنه أقوى رجل فى العالم اليوم. تعبده ملايين من الناس، وتمقته ملايين أخرى!.. كان والداه يومًا فى حكم العبدين، يباعان ويشريان مع الأرض التى يعيشان عليها.. ولكن ابن هذين العبدين السابقين يحكم اليوم سدس الكرة الأرضية، ويتحكم فى مصادر أكثر من مائتى مليون من البشر!

قد تعجب به، أو قد تحتقره.. لكن هناك شيئًا واحدًا مؤكدًا، هو أنك لا تستطيع أن تتجاهله. ولست أفهم كيف يمكن إلا أن يحترم الإنسان اخلاصه - مدى الحياة - لهدف واحد، لم يتحول عنه قط!

اسمه جوزيف ستالين.. لكن اسمه الحقيقى فى الواقع كان «يوسف فيساريو نوفتش دزوجاشفيلى»!..



ولد في أول ديسمبر سنة ١٨٧٩ في بيت صغير متواضع. كان ايجاره الشهري ستة شلنات (ثلاثين قرشاً!). باقليم «جورجيا» المشرف على البحر الأسود، والغني بحقول البترول الروسية..

وأهل «جورجيا» ما يزالوا يتكلمون لغتهم الخاصة، برغم ضم بلادهم إلى روسيا منذ ١٤٠ سنة! وقد كان ستالين نفسه يتكلم هذه اللغة حتى سن العشرين، بل أنه عاش طيلة حياته يتكلم الروسية بلهجة أهل جورجيا!.. وقد تعجب إذا علمت أن اللغتين تختلفان احداهما عن الأخرى بقدر اختلاف اللغة الأسبانية مثلاً عن الإنجليزية!

كانت أمه تغسل الثياب!

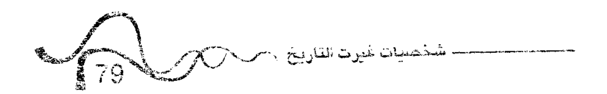
وقد ألغى القيصر اسكندر الثاني نظام العبيد في روسيا قبل أن تلغيه أمريكا بثلاث سنوات.. فلما ولد ستالين الصغير سنة ١٨٧٩ كان أبواه قد أصبحا في عداد الأحرار.. الأحرار في أن يكسب الأب خبزه

اليومى من إصلاح الأحذية، وتكسبه الأم من غسل الثياب..

فلنر كيف وصل جوزيف ستالين إلى جعل نفسه الحاكم المطلق على أراضى روسيا الشاسعة، التى حكمها قبله قياصرة روسيا لأكثر من خمسمائة عام.. أعنى لنر كيف صار «يوسف فيساريونوفيتش دزوجا شفيلى»: جوزيف ستالين!

بدأ أولاً بتلقى العلم، الذى رفعه فى بيئته الوضيعة الفقيرة ومنحه نظرا ثاقبا وهدفا لحياته. وكان أبوه قد أراده أن يصير اسكافًا، لكن أمه كانت لها أحلام - شأن سائر الأمهات! - بل إن هذه الأم الجاهلة التى ولدت فى ظل العبودية، والتى كانت تكسب قوتها من غسل الثياب وحياكتها، تاقت إلى أن ترى ابنها يعيش حياة أبهج من حياتها، فى دنيا أفضل من الدنيا التى عرفتها!

وكانت قد ألفت التردد على الكنيسة الروسية الأرثوذكسية، لتوقد الشموع أمام مذبح قديس من



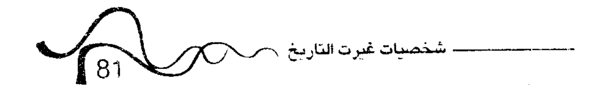
القديسين، وتركع وتبكى وهى تصلى كى يصبح ابنها «يوسف» قسًا يكرس حياته لخدمة الدين.. وما كانت لتعبأ بفداحة المجهود أو طول المدة التى تلزمها لبلوغ أمنيتها هذه، فقد كانت تسعى إلى هدف.. وهدف مقدس!

نقطة تحول!

وبفضل بحثها الدائب عثرت لابنها على مكان فى معهد لتعليم الدين فى مدينة «تيفليس»، فالتحق ستالين بذلك المعهد، وبقى فيه سنوات.. ولكن ذات يوم، وهو فى الخامسة عشرة، حدث شىء.. شىء كان فى ذاته تافهًا، ولكن قدر له أن تتولد عنه «مضاعفات» هزت العالم من أساسه فى المستقبل وقع فى يد الفتى ستالين كتاب أحدث فى تاريخ البشرية من التأثير ما لم يحدثه أى كتاب آخر غير دينى.. وكان الكتاب المذكور هو: «رأس المال» لكارل ماركس!

وأحدث الكتاب فى نفس الفتى هزة ألقت به من فورها فى زمرة الاتباع «السريين» لكارل ماركس! وجعلته يقرر أن يكرس حياته للكفاح من أجل مصالح قومه ومواطنيه.. فقد ثارت نفسه على الفقر المدقع الرهيب الذى كان يعيش فى دوامته عشرات الملايين من الفلاحين الروس.. وكان فقرا «خياليا» يصعب علينا حتى أن نصدق به.. فان الكثيرين من أولئك الفلاحين الروس كانوا عاجزين عن شراء الملح الذى يملحون به طعامهم!!

وآمن ستالين بأن الطريق الوحيد لتحسين أحوال معيشة أولئك المواطنين هو: الثورة!.. لكن نشاطه الثورى الذى انغمس فيه منذ ذلك اليوم أدى به إلى الطرد من المعهد الدينى الذى كان يدرس فيه.. فعاش الربع قرن التالى يعمل بغير توان لتحقيق مثله العليا. وفى سبيل ذلك رضى مختارًا بأن يعيش معيشة الحيوان الطريد، فعاش سنوات بلا بيت! وكانت تنقضى عليه أسابيع طويلة لا يبيت خلالها فى



المكان الواحد مرتين!.. ومن أجل مبادئه المذكورة قضى ثمانية أعوام من حياته.. فى السجن!

لكنه طيلة تلك السنوات الشاقة من الجهاد، والفرار، والاعتقال، لم ينقطع يومًا عن العمل من أجل «الحزب»: بإلقاء الخطب الثورية، وتحرير صحيفة ثورية كان يصدرها من زنزانته بسجن سانت بطرسبرج!

لا يخشى النفى.. ولا الموت!

وكان ستالين ثوريا من ذلك الطراز المتفانى، المتأهب على الدوام لبذل حريته بل وحياته ذاتها إذا اقتضى الأمر!.. وعاش بهذه الروح وهذا الشعور أسبوعًا بعد أسبوع وعامًا بعد عام.. فلما فشلت ثورة سنة ١٩٠٥ فر «لينين» و«تروتسكى» إلى سويسرا للنجاة بنفسيهما.. أما ستالين فأبى أن يفر، بل بقى فى روسيا يتحدى بوليس القيصر، فى وقت كان القبض عليه فيه يعنى احتمال اسناد ظهره إلى حائط، ورميه بالرصاص!

وخلال مدة غياب لينين فى المنفى، دأب على تهريب المقالات الثورية على ورق السجاير أو فى داخل علب الصفيح التى تخبأ فى براميل النبيذ.. فكان ستالين يتلقاها فينشرها فى صحيفته السرية!

ونفى ستالين إلى سيبيريا ست مرات.. وفر من المنفى خمس مرات، ليعود فيستأنف تغذيته لبذور الثورة يوما بعد يوم.. فإن قضبان السجون، وسياط الجلاد، والتهديد بالموت، لم تفلح كلها فى إرهابه، بل أنها على العكس زادت من تعمق ورسوخ عقيدته الواحدة التى لا تتبدل: أن يسقط حكومة بلاده المستبدة ويعطى أرض روسيا وثروتها للشعب!

فى المنفى.. بصحراء سيبيريا!

ولكن، فى المرة الأخيرة - السادسة! - التى قبض فيها بوليس القيصرية على ستالين، لم يبق محل لإفساح أية فرصة له فى الهرب، فأرسلوه فى حراسة شرطيين إلى منفى سحيق كان الذاهب إليه فى حكم

المفقود، والعائد منه فى حكم المولود! وهناك، فى الأكواخ الثلاثة المنعزلة التى يتألف منها المنفى، والواقعة فى أقصى صحراء سيبيريا الجليدية، على بعد أقل من ١٨ ميلا من المنطقة القطبية، ألقى ستالين لمصيره، دون حاجة إلى قيود أو سدود!.. وما جدوى القيود وهو لو حاول الفرار لمات حتما فى الطريق. بردًا وجوعًا؟

وعاش الأسير فى ذلك المنفى الرهيب سنوات أربع، كان الطعام الذى يصل إلى المستعمرة خلالها من الندرة بحيث ينطبق عليه المثل الروسى القائل: «ان حشرة البق تعتبر فى الصحارى الجاليدية لحمًا شهيًا!».. بل إنه كان إذا أراد خشبًا للتدفئة اضطر للذهاب إلى الغابة لقطعه وحمله إلى الكوخ بنفسه!.. وكان البرد والصقيع من الشدة بحيث لم يكن فى طوقه أن يقرأ أو يقوم بأية دراسة. بل كان قصاره أن يؤدى عملاً يدويًا شاقًا كى يحمى جسده من التجمد إلى درجة الموت!

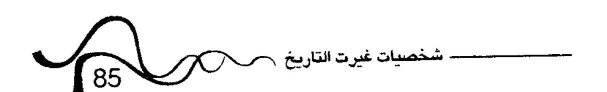
وبرغم أن موقفه كان ميئوسًا منه، فإن ستالين لم يفقد الأمل يومًا، وإنما آمن بأن لابد سوف يأتى يوم يتمكن فيه من النجاة!

وقد نجا بالفعل: نشبت ثورة ١٩١٧، فأطلق سراحه!

حياته العائلية

واسم ستالين مشتق من اللفظ الروسى «ستال»، ومعناه «الصلب» أو الفولاذ! وقد صدقوا، فإن عوده كان أصلب من صفيحة الفولاذ البارد التى لا تنثنى.. والواقع أن ستالين بالذات كان صاحب الفضل، أكثر من أى رجل آخر، فى احتفاظ الحزب البلشفى بوحدته وتضامن أعضائه خلال تلك السنوات العصيبة، الأمر الذى مكن من قيام الثورة التى أطاحت بحكومة القياصرة.

وقد تزوج ستالين مرتين: أما زوجته الأولى «كاترين» فكانت فتاة شابة ضئيلة التعليم، وقد ولدت



له ابنا. لكن حياتهما الزوجية كانت تعسة للغاية.. فقد كان ستالين مطاردًا بصفة شبه دائمة من البوليس، فلم يكن يستقر في بيته أيامًا حتى يغادره هاربًا من جديد تحت جنح الظلام.. ثم لم تنقض على زواجهما أربع سنوات حتى ماتت كاترين بداء الصدر..

ولم يتزوج ستالين مرة ثانية حتى أوفى على الأربعين، وعندئذ عقد زواجه على فتاة فى السابعة عشرة!.. وقد ماتت هذه سنة ١٩٣٤ من تسمم دموى أعقب انفجارًا فى الزائدة الدودية. ويومئذ دفنت الزوجة باحتفال دينى أورثوذكس كبير، خلافًا للعرف السوفييتى السائد!

وأنجبت له هذه الزوجة الثانية ولدا وبنتا. وقد اشترك كلا ابنيه فى القتال خلال الحرب الأخيرة، فكان الأكبر ضابطًا فى المدفعية، والأصغر فى القوات الجوية. وقد كوفىء الأخير على بسالته بوسام كبير!

ويقطن ستالين - بصفته الحاكم الأعلى لروسيا - بقرب القصر الإمبراطورى الذى عاش فيه القياصرة تسعة وستين عامًا. وقد كان فى وسعه - لو أراد - أن يقيم فى حجرات ضخمة تزينها اللوحات الزيتية الخالدة والسجاد الثمين، وينام فى الفراش الذى نام فيه القياصرة.. لكن جوزيف ستالين اختار لسكنه شقة صغيرة مكونة من أربع غرف، كان يقطنها يومًا أحد خدم القيصر!!

أما طعامه فيأتيه من مطبخ قصر «الكريملين»، ويقدمه إليه على المائدة جندى. وهو نفس الطعام الذى يقدم للمئات من موظفى القصر الحكومى!

وستالين يمقت الظهور، ويرتبك فى حضرة الغرباء. وقد قضى بعض سفراء الدول العظمى أعوامًا طويلة فى موسكو بغير أن يقع بصرهم عليه مرة!

لكنه مولع بالتأنق فى ملبسه، وله ذوق خاص فى اختيار نسيج ستراته وألوانها. وقد قابله المبعوث الأمريكى، المرحوم «ويندل ويلكى» أربع أو خمس مرات، فلم يره بنفس الثياب أكثر من مرة!.. وفى إحدى المرات كانت سترته زرقاء فاتحة، وبنطلونه قرنفلى اللون، وحذاؤه أسود لامعًا..

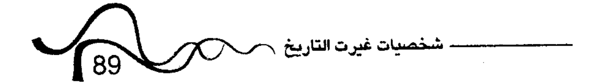
وحين يهنئه الزائرون على المعجزات التى حققها، يكتفى بالجواب: «أنها لا شىء بالقياس إلى ما نعتزم القيام به».. وهو، برغم جبروته، من الفطنة بحيث يدرك أنه ليس معصومًا من الخطأ. وقد كتب مرة: «أن فضيلة الإنسان الرئيسية هى أن تكون له الشجاعة ليعترف بأخطائه، والقوة على أن يصلح هذه الأخطاء فى أقصر وقت!».

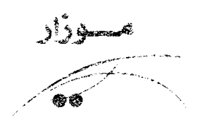
وستالين يصل إلى تحقيق أغراضه، لكن أساليبه تكون أحيانًا فظة قاسية.. حتى لقد قال فيه لينين، أبو الثورة الروسية: «هذا الطاهى سوف يترك الطعام يسخن حتى درجة الغليان!».. ولكن، لو لم يعد هذا

الطاهى الروسى وجبة فى درجة الغليان، لهتلر وأتباعه النازيين، فهل فى وسعنا أن نتصور كم ألفا آخرين من جنود الحلفاء كان لابد من التضحية بأرواحهم، قبل أن تنهار قلعة هتلر؟!

ذلك أن جوزيف ستالين ـ الطاغية ـ لكى ينقذ روسيا، ساهم بنصيب كبير فى انقاذ الديمقراطية. وأنه ليفزع المرء أن يفكر فيما كان عساه أن يحدث لنا ـ لك ولى ـ لولا بطولة جيش ستالين الأحمر وتضحياته!

***

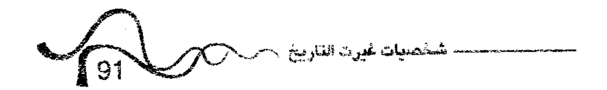




هل الفقر من ضرورات العبقرية؟

حدثنى ذات مرة المرحوم «ليوبولد أوير» أستاذ الكمان الروسى العظيم الذى اكتشف ودرب من نوابغ الموسيقيين أكثر من أى أستاذ آخر فى عصرنا هذا، فقال: «إذا كنت تريد أن تكون موسيقيًا عظيمًا فأنه يتعين عليك أن تكون قد ولدت فقيرًا! ثم أضاف أن هناك ثمة شيئًا ـ وقد سلم بأنه لا يعرف ماهية هذا الشىء بالضبط! ـ شيئًا يغرسه الفقر فى النفس.. شيئًا روحانيًا جميلاً ينمى الأحاسيس، والقوة، والتعاطف والرقة!

وقد كان موزار من الفقر بحيث لم يكن قادرًا على شراء الخشب الذى يدفىء بناره الحجرة الحقيرة



التى كان يعيش فيها.. فكان يعمد إلى دس يديه فى جورب من الصوف كى يستدفىء ويقوى على وضع موسيقاه الآلهية التى جعلت اسمه فى الخالدين!

وقد مات موزار بمرض السل وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره، بعد أن تضاءلت حيويته بفعل البرد المستمر، والجوع ونقص التغذية وبلغت تكاليف جنازته الباعثة علي الرثاء، نحو ١٢ شلنا ونصف! ولم يشيع جنازته غير ستة أشخاص فقط ساروا وراء النعش الذى ثوى فيه.. وحتى هؤلاء الستة اضطروا لأن يعودوا أدراجهم حين أخذ المطر ينهمر بشدة!

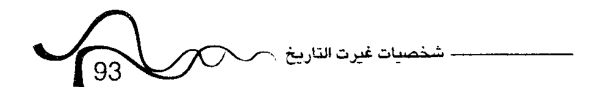
اغنيات عالمية.. ملحنوها فقراء!

وعلى ذكر موزار والفاقة التى عاناها نوابغ الموسيقى، حدثنى «هارولد ستانفورد» الذى كان الصديق الحميم «لفيكتور هربرت» بأن فيكتور عندما رحل إلى أمريكا للمرة الأولى، عانى من الفقر الأمرين، إلى درجة أنه لم يكن يملك أحيانًا غير

قـمـيص واحـد .. فكان كلمـا اتسخ ذلك القـمـيص «اليتـيم» يضطر إلى النوم فى الفراش ريثما تغسله زوجته وتكويه!

وأنا أذكـر الأغنيـة التى كنا جـمـيـعًا نـرددها فى باكورة أيام الحرب العالمية الأولى، وهى الأغنيـة التى مطلعـهـا «ان الطـريق طويل. طويل إلى تيـبـاريرى».. وقد كانت من أكثر الأغانى التى وضعت عن الحـرب ذيوعًا بين الناس، ومع ذلك فإن واضعـهـا وهو «جاك جـادج» كـان يدير سـوقًـا للسـمك فى النهـار. ويعـمل ممثلاً فى الليل.. ليتمكن من أن يعيش!

ومن أشـــهــر الأغــانى التى لحنت فى العـصـر الحديث أغنية «حبال من الفضة وسط الذهب» وقد لحنها «هارت. ب. دانكس» كعربون للحب قدمه إلى زوجتـه، وباعـهـا للناشـر بثلاثة جنيـهـات فـقـط!.. ثم تشاجر بعدئذ مع زوجته وافترقا، حتى مات هو منذ حوالى خمسة وثلاثين عامًا، فقيرًا وحيدًا، فى منزل حقير.. وعلى منضدة بجوار الفراش الذى مات عليه



وجدت ورقة تحمل هذه الكلمات «ما أشق أن تتقدم فى السن، وحيداً!».

كذلك من أشهر المقطوعات الموسيقية وأكثرها ذيوعًا فى العالم، مقطوعة كتبها ابن جزار. ومن دواعى الدهشة أنها لحنت بين حظائر الحيوانات فى قرية «سبيلفيل». وهذه المقطوعة تسمى «هيوموريسك».. وانه ليندر أن تنقضى ساعة من ساعات النهار أو الليل دون أن تعزف هذه المقطوعة فى مكان ما من العالم!

وواضع المقطوعة بوهيمى يدعى «انطون دفوراك» وقد رحل إلى أمريكا وهو فى الخمسين من عمره، ولكنه لم يطق تحمل صخب نيويورك وضوضائها فعاش ردحا من الزمن فى «سبيلفيل»، وهى قرية صغيرة ليس فيها أى مرفق من مرافق المواصلات ولا شارع واحد مرصوف، إلى يومنا هذا!

ومع ذلك فأثناء اقامته هناك كتب «دفوراك» [illegible] الذى أطلق عليه «سيمفونية العالم

الجديد»، وهو يعتبر من أجمل وأمتع الألحان التى وضعها إنسان! ولما كان قد لحنه فى حقول الحنطة فى تلك القرية فقد فكر «دفوراك» وقتًا ما فى أن يسميه «سيمفونية سبيلفيل».

صانع السجق.. يؤلف الألحان!

وقد ولد «دفوراك» لاثنين وتسعين عاما خلت فى قرية صغيرة فى بوهيميا النائية. وبعد أن نال قسطًا ضئيلاً جدًا من التعليم كان عليه أن يعمل ساعات طويلة فى محل جزارة والده. ولكن أثناء صنعه «السجق» كانت الألحان تتجاوب فى خياله، وفيما هو يقطع شرائح الخنازير كانت الأغانى تتماوج فى قلبه!.. وعليه فقد ترك محل الجزارة وذهب إلى (براغ) ليتعلم الموسيقى.. ولكن أين المال؟ لم يكن معه من النقود سوى بنسات قليلة كان يجمعها بين حين وآخر من العزف على الكمان فى الشارع. وبلغت به الفاقة حدًا اضطر معه إلى أن يقطن فى حجرة فوق سطح أحد المنازل فى حى من أفقر أحياء المدينة!

ورغم ضآلة ايجار تلك الحجرة فإنه لم يستطع أن يستقل بها بمفرده، فشاركه فى الإقامة فيها خمسة آخرون من الطلبة!

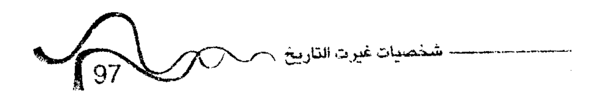
وكانت الغرفة شديدة البرودة فى الشتاء. ومن فرط الجوع اعترى الهزال جسمه إذ كان يفوت عددًا من وجبات الطعام ليوفر قيمة إيجار حطام بيانو قديم، بلغ منه التحطيم أن بعض مفاتيحه ما كانت تخرج صوتًا على الإطلاق!

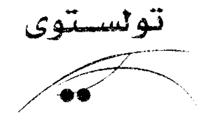
وإلى ذلك البيانو، وفى تلك الغرفة الباردة الكئيبة، جلس «دفوراك» فوضع كثيرًا من الألحان الجميلة التى لم يستطع حتى مجرد تدوينها، ولماذا؟ لأنه لم يكن يملك من النقود ما يشترى به الورق الذى يسجلها عليه، فكان يعمد أحيانًا إلى التقاط الورق المهمل الملقى فى الشارع فيدون عليه موسيقاه!

وبرغم ذلك فينبغى أن لا نبالغ فى الشعور بالأسى على «دفوراك»، فإن فقره ساعد مساعدة فعالة على

شحذ عبقريته.. وإذا استمعت إلى مقطوعته المسماه «هيوموريسك»، فحاول أن تكتشف فيها ذلك الجمال الروحانى، والرقة، وشتى المشاعر التى سجلها رجل تألم وقاسى كثيرًا، رجل كافح واحتمل البرد والجوع.. رجل ذاق مرارة الحياة وسبر أغوار اليأس!

***

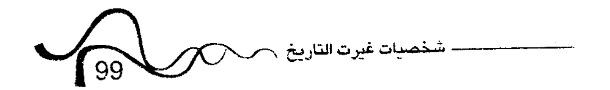




قصة أغرب من قصص الخيال!

قصة تولستوى هى قصة حياة إنسان عظيم، وهى تكاد تفوق فى غرابتها قصص ألف ليلة وليلة!.. إنها قصة «نبى» بشرى مات فى عصرنا الحاضر - سنة ١٩١٠ - وبلغ من توقير مواطنيه له أنه عاش العشرين عامًا الأخيرة من حياته هدفًا لسيل لا ينقطع من المعجبين الذين كانوا «يحجون» إلى بيته أملاً فى أن يتزودوا بنظرة عابرة إلى وجهه، ويسمعوا نبرات صوته، ويلمسوا أهداب ثوبه!

بل ان عددًا من أصدقائه نزلوا فى داره وعاشوا معه تحت سقف واحد «أعوامًا» كاملة كى يسجلوا، بالاختزال، كل كلمة ينطق بها، فى أى موضوع تافه أو حديث عابر.. ويصفو، بمنتهى الدقة أتفه تفصيلات



حياته اليومية.. وقد جمعت هذه السجلات جميعها فيما بعد وطبعت فى مجلدات ضخمة، صارت مرجعًا هامًا لكل مؤرخى حياة تولستوى..

٢٣ ألف كتاب عن حياته وآرائه!

ولعله لم يسبق فى تاريخ البشرية - أو يلحق، حتى الآن - أن كتب عن إنسان من المؤلفات مثلما كتب عن تولستوى فقد بلغ عدد الكتب التى وضعت عن حياته وآرائه ٢٣,٠٠٠ (ثلاثة وعشرين ألف كتاب)! كتبت بجميع اللغات هذا عدا ٥٦,٠٠٠ (ستة وخمسين ألف) مقال فى الصحف والمجلات.. أما عدد مؤلفاته هو وقصصه، فقد ملأت ١٠٠ (مائة) مجلد!

حياة.. مليئة بالمفارقات!

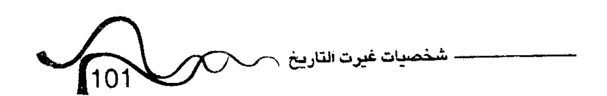
وقصة حياة تولستوى حافلة بالصور والألوان الشائقة، مثل قصصه سواء بسواء.. فقد ولد فى قصر مكون من ٤٢ غرفة، تحوطه أسباب الترف البالغ والثراء العريض المأثورين عن الطبقة

الارستقراطية فى روسيا القيصرية.. لكنه فى أواخر حياته تنازل عن جميع أملاكه وضياعه، ومتاعه الدنيوى، إيمانًا بمثله العليا التى عاش ينادى بها، ثم مات لا يملك شروى نقير، فى محطة سكة حديد صغيرة مقفرة، لا يحيط به غير عدد من الفلاحين!

وفى شبابه كان مزهوا بجاهه، يمشى متأنقًا - وكأنه يتخطر - وينفق فى حوانيت الخياطين فى موسكو ثروات طائلة!.. لكنه فى شيخوخته ارتدى الزى الخشن الذى يرتديه الفلاح الروسى، وصار يصنع أحذيته بيديه، ويرتب فراشه ويكنس غرفته بنفسه، ويتناول طعامه البسيط - على مائدة عارية من الغطاء - من آنية خشبية، بملعقة خشبية!

عربيد فى بداية حياته!

وفى شبابه عاش تولستوى معيشة وصفها هو نفسه فى «اعترافاته» بأنها «معيشة قذرة شريرة»! كان يشرب الخمر، ويقامر، ويبارز، ويزنى، ويرتكب



كل موبقة وجريمة.. حتى القتل! لكنه فى مستقبل حياته حاول أن يتبع تعاليم «المسيح» بحذافيرها.. وبات أقرب شخصيات بلاده، بل أقرب البشر عمومًا إلى القداسة!

وفى السنوات الباكرة من حياته الزوجية نعم هو وزوجته بسعادة «مثالية»، حتى أنهما كانا يجثوان على ركبتيهما مبتهلين إلى المولى عز وجل، أن يديم لهما هذه الحياة المباركة وتلك السعادة العظمى.. لكن تولستوى شقى فيما بعد مع زوجته شقاء مفجعًا جعله لا يطيق رؤيتها!.. وحين رقد على فراش الموت كان رجاؤه الأول أن لا يؤذن لها بالدخول عليه!

يخجل من أعظم مؤلفاته!

وفى شبابه كان تولستوى تلميذًا فاشلاً، يئس مدرسوه الخصوصيون من أن يدخلوا إلى ذهنه الصفيق أية معلومات نافعة.. لكنه بعد ثلاثين عامًا من ذلك التاريخ كتب اثنتين من أعظم الروايات التى

عرفها العالم والتى ستخلد على مر العصور: «أنا كارنينا» و«الحرب والسلم».

وتولستوى اليوم أكثر شهرة، فى خارج روسيا، من جميع القياصرة الذين حكموا تلك الإمبراطورية الدموية.. ولكن ترى هل أسعده أنه كتب هاتين القصتين الخالدتين؟ فى البداية، نعم!.. أما فيما بعد، فقد خجل من كونه كتبهما وكرس بقية حياته لكتابة نشرات صغيرة يعظ فيها بالسلام والمحبة ومحو الفقر.. وقد طبعت تلك النشرات طبعات رخيصة وصارت توزع على العربات من باب إلى باب.. حتى نفد منها فى أربع سنوات ١٢ مليون نسخة!

مأساة حياته.. زوجته!

وقد كانت حياة تولستوى فى مجموعها مأساة.. وكان سبب مأساته: زواجه!.. فقد كانت زوجته تحب الترف، وهو يحتقره!.. هى تتحرق شوقًا إلى المجد والنجاح الاجتماعى وهو لا يبالى البتة بهذه

التفاهات!.. هى تسعى إلى المال والثراء، وهو يعتبر اقتناء المال والممتلكات الخاصة خطيئة!.. هى تؤمن بالحكم الذى يستند إلى القوة، وهو يؤمن بالحكم الذى يستند إلى المحبة..

وزاد الشقة بين الزوجين اتساعًا ما اتصفت به الزوجة من غيرة نارية مفترسة!.. غيرة دفعتها إلى أن تكره أصدقاءه، وتطرد ابنته - وابنتها فى الوقت نفسه! - من البيت.. ثم تندفع إلى غرفة تولستوى فتطلق على صورة الابنة الموضوعة على منضدته طلقة من بندقية صيد!.. وعاشت الزوجة الحمقاء سنوات تثير أعصاب تولستوى بنكدها وصياحها وتأنيبها، حتى أحالت حياته جحيمًا.. وكان أخص ما أحنقها عليه أنه أعطى الشعب الروسى مطلق الحرية فى أن يطبع مؤلفاته بلا مقابل، ودون أن يحتفظ له بحق الملكية..

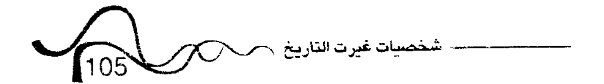
وفى إحدى مشادات الزوجة السليطة - إذ عارضها تولستوى فى رأيها يوما - اصيبت بشبه نوبة

«صـرع» فـارتمت على الأرض وفـى يدهـا قـارورة «أفيون» قـربتهـا من شـفتيهـا وهـى تقـسم أن تقـتل نفسها.. أو تلقى بنفسها فى البئر!

كان قد انقضى على زواجهما وقتئذ نصف قرن.. وكانت الزوجة تركع أحيانًا عند قدمى زوجها متوسلة إليه أن يعيد على مسامعها عبارات الحب القوية الملتهبة التى كتبها عنها فى مفكرته قبل ثمان وأربعين سنة - عندما كانا يتبادلان حبهما «الجنونى» القديم! - فكان كلما قرأ لها ذكريات تلك الأيام السعيدة التى انقضت إلى غير رجعة، ينخرط كلاهما فى البكاء بحرقة ومرارة!

نهايتـــه

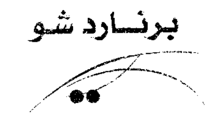
لكن كأس تعاسته فاضت به آخر الأمر، ولم يعد يحتمل شقاءه البيتى المفجع أكثر مما احتمل.. ففر من بيته ومن زوجته ليلة ٢١ أكتوبر سنة ١٩١٠ - وهو فى الثانية والثمانين - فى قلب الليل البارد المظلم،



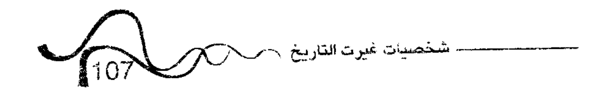
دون أن يدرى إلى أين هو ذاهب!.. وأصيب من جراء ذلك بالتهاب رئوى حاد، قضى على حياته بعد أحد عشر يومًا، فلفظ أنفاسه فى «كشك» محطة سكة حديد صغيرة مقفرة.. وليس حوله غير ابنته، وأصدقائه الفلاحين.. ومصورى الصحف العالمية!

***

برنـــارد شـو



يزخر العالم بأسماء كثيرة لامعة يشار إلى أصحابها بالبنان، ولكن ليس فيه إلا العدد القليل من المشاهير الذين يعرفون بالحروف الأولى من أسمائهم. وأحد هؤلاء القلائل رجل أيرلندى معروف بالحروف الأولى من اسمه وهى «ج. ب. ش»، وقد كان حتى وفاته أشهر أديب فى العالم كله! وقصة حياته التى تفوق التصور قد ضمها كتاب نفيس، ولكن من الغريب أن الكتاب لم يحمل الاسم الكامل لصاحب الترجمة، بل كان عنوانه «ج. ب. ش» وهى الحروف الأولى لاسم جورج برنارد شو الذى نحاول فى هذه العجالة أن نأتى على خلاصة وافية لحياته الفذة.



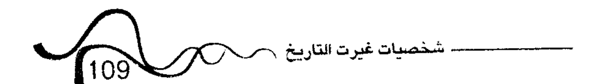
حياته مليئة بالمفارقات

وحياة برنارد شو مليئة بالمفارقات العجيبة الصارخة التى تلفت الأنظار: فمثلاً كانت كل المدة التى قضاها بين جدران المدارس خمس سنوات، وبالرغم من النقص الملحوظ فى تعليمه المدرسى فقد انعقد له لواء الزعامة للأدب وصار أشهر كتاب عصره.. بل ومنح أعظم شرف يحلم به أى مؤلف فى العالم وهو جائزة نوبل للآداب!.. وكانت الجائزة تحمل له شيكًا بمبلغ سبعة آلاف من الجنيهات، ومع ذلك فقد رفض الجائزة لأنه أصبح فى غنى عما تمنح من مال وشرف.. ولكنه رضى أخيرًا - نزولا على رغبة الاتحاد الأنجلو سويدى للآداب - أن يقبل هذا المبلغ الضخم الذى لم يضعه فى يده إلا لحظة خاطفة ثم سلمه هدية منه للاتحاد المذكور!

بين الأدب والوظيفة

وينتمى والد برنارد شو إلى عائلة أيرلندية طيبة، ولكن أمه حرمت من ميراثها لأن عمتها الغنية لم تكن

راضيـة عن زواجـهـا منه! وسـاءت الأحـوال الماليـة بالأسرة فاضطر جورج برنارد أن يكسب العيش بعرق جبينه وهو فى الخامسة عشرة من عمره. وقد ظل يشغل طيلة العام الأول وظيفة كاتب بأجر يقل عن جنيه واحد فى الشهر! ومن سن السادسة عشرة إلى العشرين اضطلع بمسئولية متجر كان يقوم بكل عمل فيه تقريبًا مقابل خمسة وثلاثين شلنًا فى الأسبوع. لكنه كره الوظائف لأنه كان قد تربى فى بيت تحرق فيه الشموع أمام محراب الفن والموسيقى والأدب. وفى صغره عندما بلغ من العمر سبع سنوات فقط كان يقرأ شكسبير، ويوحنا بنيان، وألف ليلة وليلة، والكتاب المقدس. وإذ وصل إلى الثانية عشرة كان متشبعًا بكتابات بيرون.. ثم تعاقب على الحظوة بإعجابه فى السنوات التالية كل من: ديكنز، وديماس، وشيلى. وفى سن الثامنة عشرة قرأ ستندال، وستوارت ميل، وهربرت سبنسر.. وكان لهؤلاء الكتاب الفطاحل فضل كبير فى توسيع مداركه، وإطلاقه



العنان لخياله، وتعبئة عقله بالمادة الفنية التى تنسج منها أحلام الشباب. ولذلك مرت به السنوات العجاف وهو مقيد بقيود الوظيفة فى خدمة رئيس من رجال المال دون أن يجد لذة فى عمله، لأن قلبه كان يحن إلى جنات الأدب والفن والعلم والدين..

العزيمة الجبارة تجعلك تقهر المستحيل!

وقبل أن يحتفل بعيد ميلاده العشرين حدث نفسه قائلاً: «ليس لى إلا حياة واحدة لإحياها ولن أضيعها فى وظيفة كتابية». وهكذا ما أن حل عام ١٨٧٦ حتى أحرق كل الكبارى التى تربطه بالوظيفة ثم رحل إلى لندن حيث كانت أمه تكسب عيشها من اعطاء دروس فى الغناء. وهناك بدأ اشتغاله بالأدب، الذى قدر له أن يدر عليه ثروة طائلة ويجعل له اسمًا مدويًا فى مشارق الأرض ومغاربها. لكنه سار فى طريق مملوء بأشواك الفشل مدة طويلة من الزمن، فظل يكتب تسع سنين كاملة وهو لا يلقى نجاحًا ولا يفوز بطائل.

وبالرغم من ذلك فقد صمم على أن يكرس كل وقته للكتابة. وبالرغم من ذلك فقد صمم على أن يكرس كل وقته للكتابة. ومن العادات التى انتهجها دون أن يحيد عنها بعد ذلك قيد أنملة، أنه كان يكتب كل يوم خمس صفحات كاملة، سواء وجد فى نفسه ميلاً للكتابة أو لم يجد. ويقول برنارد شو فى هذا الصدد: «كانت بقايا من صفات التلمذة والوظيفة لاتزال عالقة بى، حتى أنى كنت إذا أنجزت الصفحات الخمس المقررة لليوم، أقف عند هذا الحد ولو لم أكمل جملة مفيدة يحسن السكوت عليها! خمس صفحات وكفى، لا أكثر ولا أقل».

وكتب فى هذه الأثناء خمس روايات كبيرة. كان عنوان احداها «الحب عند أهل الفن». وبعث بنسخة من كل رواية من هذه الروايات الخمس إلى كل دار من دور النشر فى إنجلترا وأمريكا.. لكن كل الروايات اعيدت إليه! وكان أكثر الناشرين عطفًا عليه يقول له أنه يأمل أن يرى محاولته الثانية!

وظل الحال على هذا المنوال: يكتب كثيرًا ولا تلقى كتبه إلا الرفض! ولم يكن هناك مطعن فى أسلوبه الأدبى، ولكن المشكلة كانت فى آرائه الجريئة. وبلغ به الضيق كل مبلغ حتى أنه كان يتعذر عليه أحيانًا الحصول على طوابع البريد ليرسل بها كتابه إلى دار للنشر! وبلغ مجموع إيراده الذى جمعه من الكتابة خلال تلك السنوات التسع الأولى: ستة جنيهات فقط!

وعندما بليت ملابسه كان يسير فى شوارع لندن وهو يبذل جهدًا كبيرًا فى اخفاء الثقوب التى فى نعل حذائه أو فى سراويله!.. ولكنه لم يعرف مع ذلك ألم الجوع، والفضل فى ذلك يعود إلى أمه التى كانت دائمًا تستدين من الخباز والبدال لتصد عنه غائلته.. وفى كل هذه السنوات التسع التى قضاها فى الكتابة لم يكسب من قلمه إلا خمسة جنيهات أجرًا لكتابة مقال عن الطب كلفه به أحد المحامين لسبب غير مفهوم!.. وفى مرة أخرى كسب جنيها واحدا لقيامه بفرز الأصوات فى أيام الانتخابات!

كيف إذن كان شـو ليهتدى إلى سبل العيش؟ أنه يقول بكل صراحة أن أسرته كانت فى أشد حالات العـوز لكنه لم يسـتطع أن يمـد لهـا يدًا، بل على النقيض من ذلك كانت عائلته تقدم له العون ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.. كما يعترف مضيفًا إلى ذلك: «أننى لم ألق بنفسى إلى كفاح الحياة بل ألقيت بأمى إلى هذا الكفاح المرير!».

كفاح واحد وعشرين عامًا.. من أجل الحب!

وأخيرًا استطاع برنارد شو أن يقف على قدميه ويعول نفسه، لا من الكتابة والتأليف بل من النقد المسرحى. وكان أكبر نجاح مالى ظفر به من كتابة المسرحيات لا الروايات.. وحتى المسرحيات لم يكن النجاح حليفه فيها فى بادئ الأمر، فكل ما كتبه منها فى البداية كان نصيبه الفشل.. والواقع أنه ظل يكتب طيلة إحدى وعشرين سنة، حتى استطاع أخيرًا أن يجمع من المال ما يكفيه لنفقات زواجه من فتاة

موسرة، دون أن يرى الناس فى إقدامه على هذه الخطوة أية مجازفة!

الخطيب الثائر.. كان فتى خجولا!

ولا يكاد العقل أن يصدق أن برنارد شو الذى كان له وجه كالصوان يستطيع به أن يقف أمام الجموع الحافلة ليندد بقوانين الزواج، وينتقد النظم الدينية، ويسخر من الأوضاع الديموقراطية، والذى لم تسلم من لسانه كل التقاليد البشرية المرعية الجانب.. نقول أنه أمر لا يصدقه العقل أن هذا الخطيب الجرئ كان يعانى كثيرًا فى صباه من الخجل والحياء ومركب النقص! ولكن ذلك هو الواقع، فقد كان يقاسى الأمرين من خجله: فمثلاً كان يذهب فى شبابه لزيارة أصدقائه الساكنين على ضفاف نهر التيمس بلندن. واسمعوا ما يقول شو نفسه وصفًا لما كان يخالجه من مشاعر فى مثل تلك الظروف: «كنت أعانى عذابًا نفسيًا حادًا بسبب الخجل، وكثيرًا ما

كنت أذرع شاطىء النهر جيئة وذهابًا مدة عشرين دقيقة أو أكثر حتى أستجمع قوتى وأقدم على طرق باب الصديق! والحق يقال أنه كان من السهل على أن أحجم عن مثل هذه الزيارات التى كانت تعذب نفسى عذابًا أليمًا من مجرد التفكير فى القيام بها، لولا أن هاتفًا داخليًا كان يدفعنى إلى التغلب على هذا الجبن أن أردت أن أشق طريقى فى الحياة. وأعتقد أن أقلية ضئيلة جدًا من الناس تعانى مثل هذا الخجل الشديد الذى كنت أعانيه..

كيف استطاع أن يقهر الخجل

وقد كان برنارد شو حريصًا كل الحرص على سلوكه فى المجتمع، فعكف على دراسة كل كتاب يبحث فى أدب السلوك، لاسيما ما وجده من الكتب القيمة فى هذا الموضوع فى مكتبة المتحف البريطانى. وكان أكثر الكتب نفعًا له كتاب عنوانه «آداب السلوك عند المجتمع الصالح». لكنه اهتدى

أخيرًا إلى أضمن وأفضل وأسرع وسيلة للتغلب على الخوف والجبن، حين التحق بجمعية للمناظرة وتعلم كيف يخطب فى الاجتماعات العامة.. وفى المرات القليلة الأولى التى وقف فيها خطيبًا كان يلعب بعقول سامعيه وينتزع المديح من أفواههم، حتى أنهم كانوا يختارونه رئيسًا للاجتماع القادم! ولكن بقايا الخجل لم تزل متشبثة به، فكان يوقع بامضائه على محاضر الجلسات بيد مرتعشة.. وإذا لم يضع مذكرات أمامه وهو يخطب لم يكن يعرف ماذا يقول. وإذا استعان بها لم يحسن قراءتها أمام الجمهور! وهكذا كان يطوى نفسه على ألم ممض والناس لا يلحظون ذلك عليه، بل يرهفون السمع لما يقول، كلما تلعثم! وكانت له إرادة من حديد هدفها سحق الخجل، ومن ثم عول على حضور كل اجتماع يطرح فيه موضوع ما على بساط البحث والمناقشة.. وكان دائمًا ينهض لإبداء رأيه. وذات مساء - وكان له من العمر ستة وعشرون عامًا - استمع إلى المدعو هنرى جورج مؤلف كتاب

«التقدم والفقر» وهو يلقى محاضرة فى الضريبة المباشرة.. فلم يكد يخرج من المكان حتى شرع فى دراسة الاقتصاد السياسى، وأخذ يدعو بحرارة إلى وجوب تأميم الأراضى، وعندما عرض رأيه على قادة الرأى، نصحوه بالإطلاع على كتاب «رأس المال» لكارل ماركس. قائلين أنه ليس لأحد أن يجرؤ على التحدث فى نظرية الضريبة المباشرة ما لم يدرس كتاب ماركس فى رأس المال إلى جانب كتاب هنرى جورج فى التقدم والفقر. وقرأ شو كتاب ماركس الذى أحدث هزة عنيفة فى التاريخ - الكتاب الذى حرك الشعب الروسى نحو الثورة! - ويعترف شو بتأثير هذا الكتاب على حياته فيقول:

«إن كتاب (رأس المال) كان نقطة التحول فى حياتى. ولئن كنت قد اكتشفت فيما بعد أن آراءه الاقتصادية يعتورها الخطأ، إلا أنه أضاء السبيل لى، ومزق الحجب، وفتح عينى على حقائق التاريخ، وأعطانى إدراكًا جديدًا لتفهم الحضارة الإنسانية،

وخلق لى غرضا ورسالة فى الحياة.. وصفوة القول أنه صنع منى إنسانًا!».

أجل! لقد بات صدر برنارد شو - بفضل هذا الكتاب - يشتعل بالنار، نار العقيدة القوية الراسخة.. ولكن أين الخجل؟ لقد ذهب إلى غير رجعة..

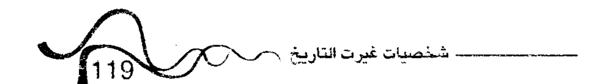
لقد وجد شو كتابًا ملأه بغيرة المجاهد فى حرب مقدسة، وجعله ينسى كل شيء عن نفسه! صار لا يعبأ بشيء إلا بالقضية التى ينافح عنها. وظل اثنى عشر عامًا يقف فى نواصى الشوارع، أو فى الاجتماعات العامة، وحتى فى الكنائس، فى طول البلاد وعرضها، يدعو الناس إلى اعتناق الاشتراكية!..

وكان يلاقى الشيء الكثير من الأذى والاضطهاد من غير المؤمنين بدعوته، ولا يبالى من ذلك إلا بأن يقرع الحجة بالحجة، سعيا إلى نشر الدعوة ونجاحها.. وهكذا صار بمرور الأيام من أقدر الخطباء فى عصره، وصارت تصله الدعوات

المتلاحقة للخطابة، فيتهافت الناس على سماعه.. بل إن الأثرياء والرأسماليين كانوا يسبقون طبقة العمال والكادحين إلى قاعة الاجتماع! واستغل أصحاب الصالات الكبيرة مقدرته الخطابية، كي يجمعوا المال.. مع أنه لم يقبل أجرًا على محاضراته، وإنما كان يجمع تبرعات من الحاضرين لنشر الدعوة التى آمن بها..

العانس ذات العينين الخضراوين

وفى خلال عام ١٨٩٦ التقى بفتاة تدعى «شارلوت بين تاونشند»، وكان هو فى الأربعين وهى عانس فى التاسعة والثلاثين من عمرها، ووارثة لعقارات تدر عليها إيرادًا ثابتًا. وأخذت الأيام تبتسم له بعد تجهم فأصاب نجاحًا عظيمًا، إذ بلغت أرباحه فى عام واحد من مسرحية واحدة كانت تمثل فى أمريكا: عشرين ألفا من الجنيهات! وكانت العانس المذكورة قد سئمت حياة الترف وانضمت إلى جماعة



«الفابيان» ذات الأغراض الإنسانية النبيلة. وكان شو وقتئذ أكبر داعية للجماعة، فأعجبت به شارلوت.. ونما الإعجاب إلى حب، لم تملك إلا أن تصارحه به.. وكانت فى حبها له تبصره بعيوبه، وتقول له أحيانًا أنه أكبر محب لذاته رأته عيناها!

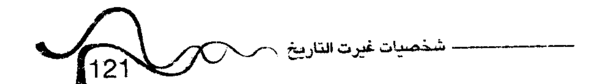
ومضى عامان وهو لا يحلم بالزواج منها.. وفى شهر مارس عام ١٨٩٨ رحلت إلى مدينة روما لتدرس نظم البلديات المتبعة هناك. وما أن وصلت إلى روما حتى تلقت برقية تنبئها بأن برنارد مريض جدًا وقد برحت به العلة وبلغت حد الخطورة على حياته.. فعادت فى الحال إلى لندن حيث وجدت «شو» قد أصيب بانهيار فى صحته بسبب الارهاق فى العمل. وأشفقت عليه حين رأت الحجرة الضيقة التى كان يقطنها . وقد صرح شو يومئذ بأن حجرته لا يقوى على تنظيفها غير الديناميت! أو على حد تعبيره: «لو أن سبع فتيات وفى أيديهن سبع مكانس قمن بتنظيف هذا الكهف الذى أسكن فيه، ومضين فى

عـمليـة الكنس والتنظيف مـدة نصف قـرن، لما كـان لعملهن أى أثر!».

زواج بالصدفة

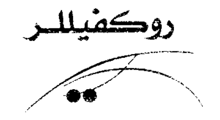
وألحت عليـه هذه الفـتـاة الغنيـة ذات العـينين الخضراوين فى أن تنقله من مسكنه إلى بيتها الريفى الجميل، لكى تقوم على العناية به. وأمام إلحاحها لم يكن فى وسعه إلا أن يرسلها لتشترى خاتما ووثيقة زواج!.. ويقول «شو» فى ذلك: «تزوجتها تحقيقًا لغرض كنت من قبل أحسبه بعيد المنال، وهو أن أجد شخصًا أفكر فيه أكثر من تفكيرى فى نفسى!».

وعاشا معا يرفرف عليهما علم السعادة الزوجية طوال خمسة وأربعين عامًا، إلى أن توفيت زوجته فى الثانى عشر من شهر فبراير عام ١٩٤٣. وقد ظن الناس أنه يكبرها بعشرين سنة ولذلك كانوا يتوقعون أن يرحل قبلها إلى العالم الآخر، ولكن الفرق الحقيقى بين عمريهما كان أربعة شهور فقط!



ومع أن برنارد شو ولد فى عام ١٨٥٦ فإنه كان يقول أنه جد منشغل بالحياة بحيث لا يجد متسعًا من الوقت للتفكير فى الموت! وقد عمر طويلاً فمات فى عام ١٩٥٠ وله من العمر أربعة وتسعون عامًا. مات وإن عاش اسمه بين الخالدين.. ومن أقواله المأثورة فى هذا الصدد: «إنى أحب الحياة للحياة نفسها.. وليست الحياة عندى شمعة قصيرة الأجل، بل هى شعلة متوهجة، أمسك بها ما دمت حيًا، ثم أسلمها للأجيال المقبلة على ما هى عليه من التوهج والتألق».

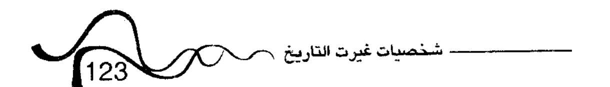
***



الرجل الذى جمع بين ثلاث عجائب خارقة!

فى حياة «جون د. روكفللر» ثلاث عجائب خارقة: أولها أنه جمع من المال ما لعله يعد أضخم ثروة فى تاريخ الإنسانية! وقد بدأ حياته العملية بفلاحة الأرض وزراعة البطاطس تحت وهج الشمس المحرقة، مقابل بنسين (٨ مليمات) فى الساعة!.. وفى تلك الأيام لم يكن فى الولايات المتحدة بأسرها نصف «دستة» من الرجال الذين يملك الواحد منهم مائتى ألف جنيه!.. لكن روكفللر برغم هذا جمع من الثروة ما قدر بين العشرين والأربعين مليونًا من الجنيهات!

ومع ذلك فإن أول فتاة أحبها رفضت الزواج منه. ولماذا؟ لأن أمها أبت الموافقة على تزويجها من رجل



مـثل جـون روكـفللر، لا يملك أية مـؤهـلات تبـشـر بمستقبل مرموق!

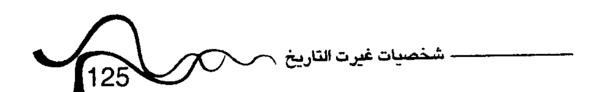
والعجيبة الثانية فى حياة روكفللر أنه تبـرع بمبالغ من المال تفـوق مـا تبـرع به أى إنسـان فـى التـاريخ!.. فقـد بلغ مجموع تبرعاته مائة وخمسين مليون جنيه، وهذا يعنى أنه تبـرع بأكثـر من ثلاثة شلنات مقابل كل دقيـقة مـرت منذ مولد المسيح (أى منذ ١٩٥٤ سنة).. أو مـا يوازى مـائة وخـمـسـين جنيـهـًا مقـابل كل يوم أشـرقت شـمسه منذ قـاد موسى بنى إسـرائيل عـبـر البحر الأحمر (أى منذ ٣٥٠٠ سنة)!

وثالثـة العـجـائب أن روكـفللر عـاش حـتى سن السـابعة والتسـعين.. برغم أنه تلقى آلاف الخطابات التى يهـدده كـاتبـوها بالقـتل.. (فـقـد كـان من أكـثـر الرجـال المكروهيـن فى أمـريكا!) وقـد اقـتـضـى ذلك تعيين حراس مسلحين لحراسته طيلة الليل والنهار!.. كما أن روكفللر احتمل الارهـاق العصبى والجسمانى المروع الذى اقـتـرن بـه تأسـيس وإدارة مـشـروعـاته

والجسمانى المروع الذى اقترن به تأسيس وإدارة مشروعاته الضخمة العديدة.. وهو الارهاق الذى قتل ثلاثة من أصحاب الملايين وكبار رجال الأعمال الأمريكيين، (هم: هاريمان، ملك السكك الحديدية.. ثم وولورث، ملك متاجر ألف صنف.. وباك ديوك، ملك التبغ) فى سن ٦١، ٦٧، ٦٨، على التوالى!.. لكن روكفللر جمع أكثر من ثروات هؤلاء الثلاثة مجتمعة، ومع ذلك فقد عاش إلى سن ٩٧!.. ولو علمت أنه لا يبلغ هذه السن غير ثلاثين رجلاً من كل مليون، ولا يبلغها مستمتعًا بجميع أسنانه الطبيعية سليمة - مثل روكفللر - غير واحد بين كل مائة مليون شخص.. لاعتبرت تعميره واحتفاظه بصحته إلى هذه السن أعجوبة الأعاجيب!

ما هو سر طول عمر روكفللر؟

فماذا إذن كان سر طول عمر روكفللر؟ لعله قد ورث «الاستعداد» لطول العمر عن والديه وأجداده..



لكن الذى قوى من هذا «الاستعداد» طبيعة الرجل الهادئة التى كانت تحميه دائمًا من الانفعال والعجلة.. ثم حرصه على أخذ قسط اضافى من النوم أثناء النهار.. من قبيل ذلك أنه حين كان يرأس شركة ستاندارد للبترول، كان يحتفظ فى غرفة مكتبه بكنبة عريضة يخلد عليها للنعاس لمدة نصف ساعة عند ظهر كل يوم. وقد استمر على هذه العادة حتى نهاية حياته.

وقد أصيب رو كفللر فى سن الخامسة والخمسين بانهيار فى صحته، فكان ذلك من أسعد الأحداث فى تاريخ الطب عامة.. فبسبب ذلك الإنهيار صار الرجل ينفق الملايين من الجنيهات على البحوث الطبية. وما تزال «مؤسسة روكفللر» تنفق فى هذا الباب مليونين ونصف مليون من الدولارات كل عام!.. وحين تفشى وباء الكوليرا الرهيب فى الصين سنة ١٩٣٢، كانت كلية الطب التى أنشأتها تلك المؤسسة فى «بيكين» من أعظم الهيئات التى تولت مكافحة الوباء، برغم

عوائق الفقر والجهل السائدين هناك. ومن ناحية أخرى، كان أطباء المؤسسة هم الذين اكتشفوا مصل الحمى الصفراء اللعينة، وهم الذين شنوا الحملات الظافرة فى كل بقاع الأرض ضد حمى الملاريا بدورها..

«شلن» هو أول أجر فى حياته!

وقد ربح جون روكفللر أول «شلن» فى حياته من مساعدته لأمه فى تربية الدواجن (الديكة)!.. وقد ظل حتى آخر حياته يحتفظ بقطيع من الديكة الأصيلة فى ضيعته البالغة مساحتها ثمانية آلاف فدان. احتفظ بها لتذكره بصور طفولته الغابرة!.. وقد كان يدخر كل فلس تعطيه إياه أمه، مقابل تعهد دواجنها، فى فنجان شاى مكسور يحتفظ به فوق رف المدفأة!

ثم عمل فى مزرعة بأجر قدره شلن ونصف فى اليوم، فكان يدخر كل أجره حتى جمع مبلغ عشرة

جنيهات، أقرضه يومئذ لمخدومه بفائدة قدرها ٧ فى المائة. وإذ ذاك اكتشف أن جنيهاته العشرة تدر عليه فى العام ما يوازى أجره عن عمله الشاق لمدة عشرة أيام!.. فقال «ومنذ اكتشفت هذه الحقيقة، اعتزمت أن أجعل المال عبدًا لى، لا أن أكون عبدًا له!».

وروكفللر لم يدلل ابنه ويفسده بإغداق المال عليه، بل كان لا يعطيه منه إلا بمقدار حاجته، على أن يؤدى فى مقابل ذلك عملاً نافعًا. ومن ذلك أنه جعل له نصف بنس (مليمين) عن كل ثغرة فى سياج الضيعة يكتشف حاجتها للإصلاح!.. فلما اكتشف الابن من هذه الثغرات ثلاث عشرة فى يوم واحد. دفع له أبوه عنها ستة بنسات ونصف. ثم صار يدفع له سبعة بنسات ونصف عن كل ساعة يقضيها فى إصلاح تلك الثغرات.. كما اعتادت أمه أن تدفع له بنسين ونصف عن كل ساعة يتمرن فيها على عزف الكمان.!

ولم يدرس روكفللر يوما فى جامعة، وإنما التحق عقب دراسته «الثانوية» بمدرسة للتجارة لبضعة أشهر.. ثم زهد فى الدراسات العلمية وهو فى سن ١٦. ومع ذلك فقد تبرع لجامعة شيكاغو بهبة قدرها عشرة ملايين جنيه!

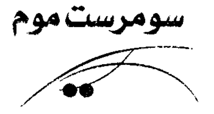
مثال للتدين والاستقامة!

وكان روكفللر على الدوام مواظبًا على الذهاب إلى الكنيسة، وفى شبابه كان يتولى تدريس الدين فى اجتماعات مدارس الأحد. وكان متدينا، مستقيمًا: لم يرقص قط.. ولا لعب كأسا من الخمر!.. وكان يصلى قبل تناول كل وجبة طعام، ويقرأ فى الإنجيل وكتب الصلوات كل يوم..

وثروة روكفللر ماتزال تنمو بمعدل عشرين جنيها كل دقيقة! وقد كانت كل أمنية الرجل أن يعيش حتى يبلغ المائة، كى يتم قرنًا كاملاً.. وصرح بأنه لو قدر له أن يحتفل بعيد مولده المئوى (الذى كان موعده يوم ٨

يوليو سنة ١٩٣٩)، فسوف يقيم الاحتفال المذكور فى الدار التى أنشأها بضيعته، وسوف يقود بنفسه جوقة الموسيقى لتعزف لحنه المفضل «عندما كنا، أنت وأنا فى شبابنا يا (ماجى)!».

***

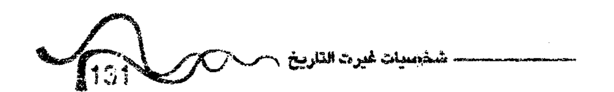


الأمطار أعظم مسرحية بعد «هملت»!

ما هى، فى اعتقادك، أعظم مسرحية كتبت حتى يومنا هذا؟.. عندما أخذت أصوات أبرز النقاد المسرحيين فى نيويورك، لاختيار أعظم عشر مسرحيات ظهرت فى جميع العصور، نالت «هملت» التى مضى على كتابتها ما يربو على ثلاثمائة سنة، المكان الأول فى القائمة..

أما الرواية الثانية فى الترتيب، فلم تكن «ماكبث».. أو «الملك لير».. أو «تاجر البندقية».. بل كانت «الأمطار»!

نعم «الأمطار»، تلك الدراما العنيفة التى تدور حول صراع غريزة الجنس مع الدين. وعراكهما



بالسن والناب فى البحار الجنوبية.. وقد اقتبست عن قصة قصيرة لسومرست موم!

وقد ربح موم من هذه المسرحية أربعين ألف جنيه.. ومع ذلك فإنه لم يستغرق فى كتابتها.. دقيقة واحدة!

وإليك القصة - أو بالأحرى قصة القصة: كان موم قد كتب قصة قصيرة أطلق عليها «سادى تومسون»، ثم لم يعد يفكر فيها بعد ذلك.. وذات ليلة، كان أحد كتاب المسرح - ويدعى جون كولتون - يبيت فى ضيافته، فطلب شيئًا يقرأه ليستعين به على النوم. وإذ ذاك أعطاه موم مسودة قصة «سادى تومسون»!

وافتتن كولتون بهذه القصة التى هزت مشاعره، فنهض من الفراش وأخذ يذرع أرض الغرفة، وهو يتصور القصة بخياله وقد وضعت فى قالب مسرحى، فصارت دراما تستحق الخلود!

وما كاد ينبلج وجه الصبح، حتى هرع كولتون إلى موم صائحًا به: «إن القصة التى أعطيتنى إياها

لتعينني على النعاس، قد أطارت النوم من جفني. لقد قضيت الليلة بأكملها أفكر في صلاحيتها لأن تقتبس منها مسرحية هائلة!».

لكن موم قابل الفكرة بفتور، إذ لم تحرك له ساكنًا، وقال ساخرًا: «مسرحية؟! أي نعم، لعلها تصلح لأن تكون تمثيلية سقيمة.. وقد يستمر عرضها - إذا قدر لها النجاح - ستة أسابيع على الأكثر، ولكنها، والحق يقال، لا تستحق عناء الاهتمام بها!»

«الأمطار» و ٤١٥ ليلة متوالية على المسرح!

لكن ذلك لم يثبط من همة كولتون، بل واصل جهوده حتى أتم اعداد القصة للمسرح وسماها «الأمطار»، ثم عرضها على المخرجين، فرفضوها جميعًا، جازمين بفشلها!.. وأخيرًا قبلها واحد منهم، هو «سام هاريس»، قبلها خصيصًا آخر الأمر كي يسند بطولتها لممثلة ناشئة تدعى «جين إيجل»!.. لكن ممول المسرح عارض في ذلك طالبًا اسناد الدور إلى ممثلة مشهورة!

وأخيرًا فازت جان إيجل بالدور، ومثلت شخصية «سادى تومسون» بقسوة وحرارة عاطفية جعلتها أعجوبة الوسط المسرحى فى برودواى!.. واستمرت الرواية تمثل فيمتلىء المسرح بأكمله بالنظارة طيلة أربعمائة وخمس عشرة ليلة متوالية! وفى كل عرض تزداد الجموع المتزاحمة إلتهابًا وحماسة!

لقد كتب سومرست موم كتبا عديدة ممتازة منها: «أغلال الحب»، و«القمر وستة بنسات»، و«القناع الملون»، عدا طائفة من المسرحيات الناجحة يربو عددها على العشرين دراما، لكنه لم يكتب التمثيلية التى فاقت شهرتها جميع تمثيلياته!

ويعد سومرست موم الآن من نوابغ عصره، ومع ذلك فقد لايعلم الكثيرون أن الفشل المالى ظل يلازمه طيلة الإحدى عشرة سنة الأولى من احترافه الكتابة! ومن العجيب أن هذا الرجل الذى قدر له أن يربح من مؤلفاته ٢٠٠ ألف من الجنيهات، لم يزد ربحه خلال الإحدى عشرة سنة الأولى - من قصصه القصيرة

والطويلة - على مائة جنيه سنويا، بل اضطرته الفاقة أن يبيت أحيانا على الطوى! ولطالما حاول أن يجد عملاً كمحرر للمقالات الافتتاحية فى إحدى الصحف، بمرتب ثابت، ولكنه لم يوفق إلى ذلك. وقد صارحنى مرة بقوله: «لقد اضطررت إلى مواصلة الكتابة لعدم استطاعتى الحصول على عمل!».

ولامه أصدقاؤه على حماقته التى تجعله يحترف الكتابة رغم فشله المتكرر. ولما كان حديث عهد بالتخرج من كلية الطب، فقد نصحوه بهجر القلم وترك القصص الخيالية جانبًا ليمارس مهنة المبضع. لكن جهودهم فشلت فى أن تنال من عزيمته الماضية وتصميمه على تخليد اسمه بحروف ضخمة بارزة فى تاريخ الأدب الإنجليزى!

عندما واتاه الحظ!

ولقد حدثنى بوب ريلى، محرر باب «صدق أو لا تصدق» المشهور قائلاً: «قد يعمل الإنسان ويظل

يكدح عشر سنوات وهو نكرة مهمل خامل الذكر، ثم يلمع نجمه فجأة فى عشر دقائق!».

وهذا القول يصدق كل الصدق على سومرست موم، فقد واتاه الحظ آخر الأمر من حيث لا يدرى. وإليك كيف واتاه بفرصته الأولى: فشلت تمثيلية أحدهم فشلاً ذريعًا على أحد مسارح لندن، فراح صاحب المسرح يبحث فى عجلة عن مسرحية يعرضها مؤقتًا، ريثما يعد المسرحية التالية على مهل.. ولم يكن يطمع فى تحفة رائعة، بل كان أقصى ما يؤمل فيه أن يجد أية رواية متوسطة الجودة يقدمها لرواد مسرحه. وفيما هو يعبث بمحتويات أدراج مكتبه ويستعرض الروايات المهملة التى تزخر بها، وقعت فى يده رواية لسومرست موم عنوانها «ليدى فردريك»، كان قد مضى على وجودها فى الدرج عام كامل. ومع أنه كان قد قرأها من قبل ولم ترق فى عينيه، لكنه رآها فى هذه المرة تصلح لأن تمثل بصفة مؤقتة ليسد بها الفراغ الشاغر لبضعة أسابيع!

وأخرجها بالفعل.. وهنا حدثت المعجزة! فقد ظفرت «ليدى فردريك» بنجاح هائل، وباتت حديث أهل لندن جميعًا. بل إنها سحرت لب أهل إنجلترا حيث أثارت من تعليقات المعجبين ما لم تثره مسرحية أخرى منذ عهد روايات أوسكار وايلد ذات الحوار الخلاب!

وللحال تهافت مديروا المسارح جميعًا فى لندن على سومرست موم يلتمسون رواياته.. فصار صاحبنا ينبش مخطوطاته القديمة وأوراقه المهملة حتى أخرج ثلاث مسرحيات مثلت على ثلاثة مسارح مختلفة فى آن واحد، واكتظت المقاعد عن آخرها بالنظارة، بل توافد أفراد الأسرة المالكة فى فيض لا ينقطع، كما تهافت الناشرون يتزاحمون على طبع مؤلفات هذا النابغة الفذ. وهبط الحظ على العبقرى الذى كان مغمورًا، وسلطت عليه الأضواء فجأة، فبات موضع حديث الناس جميعًا، وانهالت عليه رقاع الدعوى من أرفع طبقات المجتمع. وهكذا بعد أحد

عشر عامًا قضاها سومرست موم فى زاوية النسيان، وجد نفسه فجأة موضع التنافس وقبلة الأنظار فى صالونات «ماى فير» الراقية، التى تهافت روادها على شرب نخبه!

تعويذة ضد «الحسد»!

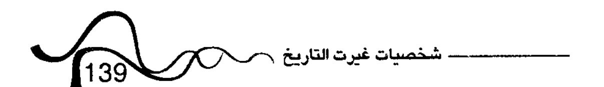
وموم - كما صرح لى - لا يكتب حرفًا بعد الساعة الواحدة ظهرًا، إذ أن قريحته يسودها الخمول بعد الظهيرة.. ومكانه المفضل للكتابة «سقيفة» مظللة، أشبه بمظلات الكروم، أقامها على سطح الفيلا التى يقطنها فى ساحل الرفييرا، وقد سيدها على الطراز المراكشى!.. ومن عادة موم دائمًا أن يدخن غليونه ويقرأ الفلسفة لمدة ساعة قبل أن يشرع فى الكتابة!

ومنذ فراره من الغزو الألمانى الذى اجتاح فرنسا، انتقل موم إلى مزرعة بولاية «كارولينا الجنوبية» بالولايات المتحدة، حيث أقام مواصلاً مجهوده الأدبى طوال سنوات الحرب..

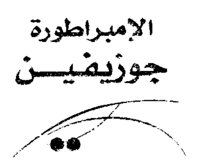
ورغم زعمه أنه لا يؤمن بالخرافات، فقد أفضى إلى بأنه يضع شعار «عين الحسود» على جميع مؤلفاته، بل يحتفظ به على اللوحة التى تحمل اسم العائلة، وعلى أطباق مائدته، وأدوات مكتبه، وأوراق اللعب التى يستعملها (الكوتشينه).. كما أنه حفر العلامة ذاتها على رف مدفأته.. بل وعلى مدخل داره!

لكننى كلما سألته عما إذا كان يؤمن حقيقة بصحة هذه المعتقدات، ابتسم ولم يجب!

***





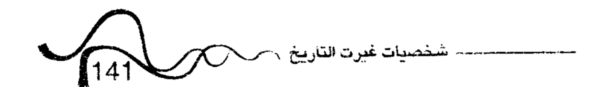


تعرف كيف تتعامل مع الرجال!

هذه قصة فتاة فقيرة ولدت فى قرية صيد. فى جزر الهند الغربية، وعاشت فى بضع غرف عارية قذرة فوق معمل لتكرير السكر!.. وهى فى الوقت نفسه قصة فتاة تزوجت من أشهر رجل فى تاريخ العالم قاطبة!

كان اسمها «مارى جوزيف روز تاشر لاباجيرى»، ولكنها تعرف عادة باسم «جوزيفين»!

كانت جوزيفين تكبر نابليون بست سنوات. وعندما تقابلا لأول مرة كانت هى فى الثالثة والثلاثين وهو فى السابعة والعشرين. ولم تكن جميلة، بل كانت أسنانها على الأخص قبيحة المنظر..



وكان لها ولدان كبيران.. وفوق هذا وذاك كانت مدينة، بل غارقة فى الديون - حتى لقد كانت قاب قوسين أو أدنى من الوقوع فى قبضة البوليس!

ومن ثم فينبغى أن نسلم بأنها بدأت حياتها ومجموعة من الصعاب القاسية تعترضها. ولكن كانت فيها صفة واحدة هائلة تعوضها عما ينقصها: كانت تعرف كيف تسوس الرجال.. فقد كانت أرملة، مرت بالكثير من التجارب والاختبارات!

وعندما قطع الثوار الفرنسيون رأس زوجها الأول، وجدت جوزيفين نفسها بغير عائل، ففعلت ما تفعله كل الأرامل العاقلات: بدأت تبحث عن زوج!

وأخبرها أحد أصدقائها عن نابليون، ولم يكن قد ذاع صيته بعد، ولا كان يملك شيئًا.. بل كان عائدًا لتوه من إحدى المعارك الحربية. والغنيمة الوحيدة التى جلبها معه من المعركة كانت مرضًا جلديًا لعينا، اضطر كى يتخلص منه إلى أن يقص شعر رأسه!

ولكن أصدقاء جوزيفين أخبروها بأن نابليون ينتظره مستقبل باسم.. ولما كانت جوزفين امرأة من البشر، فقد سعت إلى رؤيته!

ولكن كيف تتمكن من رؤيته؟ لقد اصطنعت حيلة بارعة كى تصل إلى بغيتها: أرسلت ابنها الصغير - وكان يبلغ من العمر اثنى عشر عاما - ليسأل نابليون عما إذا كان يستطيع أن يسترد سيف والده المتوفى (والد الغلام)؟

وطبعًا أجاب نابليون بالإيجاب.. وفى اليوم التالى تزينت جوزفين وذهبت، والدموع فى عينيها، لتشكر نابليون على عطفه وأريحيته!.. فتركت شخصيتها وجاذبيتها الفائقة أثرًا بالغًا فى نفس نابليون، الذى أدرك أنها تفوقه من حيث المستوى الاجتماعى.. ومن ثم فقد أحس بالزهو يملأ أعطافه حين دعته لتناول الشاى فى بيتها!.. وعندما لبى الدعوة أرضت غروره مرة أخرى بقولها أنها تتنبأ له بأنه سوف يصبح من

أعظم قـواد التـاريـخ!.. فلم تنقض على ذلك اللقـاء ثلاثة أشهر حتى أعلنت خطبتهما!

تنتظره نابليون ساعين ليلة الزواج!

وكانت عند نابليون نزعة متأصلة للمحافظة على مواعيده، بل لقد كان شعاره الذى يحرص عليه كل الحرص أن «الوقت من ذهب». ومن مأثور أقواله فى هذا الصدد: «قد أفقد المعارك، ولكن أحدًا لن يرانى أفقد الدقائق!».

.. ومع ذلك فقد تأخر عن موعد زواجه ساعتين! وخلال فترة الانتظار الطويلة بلغ التعب من موثق العقود الذى جاء ليعقد القران أنه أخذ يتثاءب ويغالب النوم.. لكن النعاس غلبه فى النهاية، فنام قبل أن يصل نابليون!

ولم تمض على الزواج ثمان وأربعون ساعة حتى انطلق نابليون ليشن حربًا جديدة فى إيطاليا.. وكان جيشه فى تلك الآونة جائعًا، بالى الثياب، ومع ذلك

فقد أبلى أحسن البلاك فى معركة سرت أنباؤها فى القارة مسرى البرق.. فلم تكن أوروبا قد رأت قتالاً مثل ذاك فى مدى ألف عام!

رسائل نابليون الملتهبة.. كل يوم!

ولكن الذى يثير الدهشة حقًا أنه حتى فى تلك الظروف التاريخية العصيبة وجد نابليون الوقت والفرصة كى يكتب إلى جوزفين رسالة كل يوم.. وأية رسائل؟ رسائل حارة، ملتهبة، عاصفة! (وقد بيعت ثمان من هذه الرسائل الغرامية فى سنة ١٩٣٣ فى مزاد علنى بمدينة لندن مقابل أربعة آلاف جنيه!).. ولقد أتيح لى أن أقرأ بعض هذه الرسائل، فخرجت من مطالعتها بإعتقاد أنها تساوى كل هذا المبلغ ـ حتى فى هذه الأيام ـ وإليك نموذجًا منها:

«عزيزتى جوزفين..

«لقد الهمتنى حبا سلبنى عقلى، حتى لقد بت لا أستطيع أن آكل، أو أنام، أو أعنى بأصدقائى، أو

أعنى بالمجد.. فما غدت للنصر قيمة عندى إلا فى كونه يثلج صدرك.. ولولا ذلك لتركت الجيش وهرعت عائدًا إلى باريس لألقى بنفسى عند قدميك..

«لقد ألهمتنى حبًا ليس له حد، وأفعمتنى حماسة دافقة تسكر أعطافى.. بحيث لا تمر ساعة لا أتطلع فيها إلى صورتك، وأغرها بالقبلات!»

وهذه العبارات تعتبر فاترة بالقياس إلى بعض العبارات الأخرى الملتهبة التى كتبها القائد الشاب إلى زوجته فى مناسبات مختلفة. ولست أشك فى أن أكثر النساء لا يحجمن عن التضحية بذراعهن اليمنى كيما توجه إليهن رسائل كهذه!.. لكن جوزفين لم تبد مع ذلك كبير اهتمام برسائل نابليون إليها.. فقد كانت مشغولة بمغازلة عاشق آخر!

واستشاط نابليون غضبًا من إهمال زوجته فى الرد على خطاباته، وأمضه عدم اكتراثها.. فعمد إلى

الانتقام منها أثناء حملته على مصر بدعوة فتاة شقراء إلى تناول الشاى معه.. وبلغ النبأ مسامع جوزفين فى باريس، رغم بعد الشقة، فلما عاد نابليون إلى فرنسا حاسبته على فعلته حسابًا عسيرًا ـ كما تفعل الزوجات عادة فى مثل هذه الأحوال! ـ وخلال الشجار صارحته جوزفين برأيها فيه، وصارحها هو برأيه فيها.. وانتهى به الأمر إلى أن أوصد بابه دونها!

معاركها مع شقيقات نابليون!

وقد أعقبت تلك الأزمة متاعب جمة فى الأسرة، وعلى الأخص بين جوزفين وشقيقات نابليون.. فقد كانت هى تفوقهن تهذيبًا، الأمر الذى أثار فيهن شعور الغيرة منها والحسد لها.. وصور لهن الوهم مختلف التصورات: صرن يعتقدن أنها تكيد لهن، فجن لذلك جنونهن، وأقسمن أن يعاملن وإياها على قدم المساواة، ويطاولن مكانتها عند أخيهن.. فبدأن يسخرن منها، ويطلقن عليها لقب «العجوز»! ثم رحن يوحين إلى نابليون بأنه كان ينبغى أن يطلق زوجته

«البديئة العجوز» ويتزوج من أخرى تصغرها فى السن.. إلخ.

ولكن برغم ما أطلقن به ألسنتهن ضد جوزفين، فقد عجزن عن قتل حب نابليون لها.. لم يفلح فى انتزاع حبها من قلبه أى شىء.. لا شىء على الإطلاق!

ومع ذلك فقد جاء اليوم الذى قرر فيه تطليقها، لسبب واحد لا غير: أراد زوجة تنجب له وريثًا، لعرشه ومجده!.. ولقد حطم قلبه أن يضطر إلى هذا الطلاق، فبكى وهو يوقع وثيقته.. ثم قضى الأيام الثلاثة التالية جالسًا فى قصره يحملق فى الفضاء، شارد الذهن، رافضًا مقابلة أى إنسان، أو تصريف شىء من شؤون الدولة!

الزوجة الثانية.. تهجره!

ولكن لم تمض على الطلاق مدة وجيزة حتى تزوج نابليون من الأميرة النمسوية «مارى لويز»!..

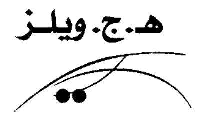
والعجيب فى أمر هذا الزواج أن مارى لويز - شأن سائر النمسويات - نشئت وربيت على احتقار عدو وطنها اللدود نابليون! ولقد تضرعت إلى الله أن لا تضطر للزواج منه، ولكن أباها أصـــر على اتمام «الصفقة» لأغراض سياسية! فعقدت الزيجة «غيابيا» بمقتضى توكيل، بغير حتى أن يقع بصر الزوجة على زوجها.. وكانت النتيجة المنطقية لذلك أنها عاشت لا تحفل به! وعندما بدأ يفقد معاركه الحربية وأخذ نجمه فى الأفول، هجرته.. بل وعلمت ابنه الوحيد الذى أنجبته له أن يكرهه!

والواقع أن حب نابليون الأول، والأخير، وحبه الحقيقى الأوحد، كان لجوزفين!.. فلما ماتت زار قبرها، وأكب عليه يبكيها منتحبًا بحرقة: «حبيبتى جوزفين.. إنها على الأقل ما كانت لتهجرنى قط!».

وعندما حضرته الوفاة، كانت آخر كلمة لفظتها شفتاه: «جوزفين!».

***

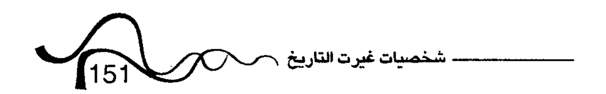




رب ضـارة نافعــة!

منذ قرابة خمسة وسبعين عامًا كان لفيف من الأطفال يلعبون فى إحدى ضواحى لندن، وإذا بحادث يقع فيعكر عليهم صفوهم: فقد أمسك أحد الأولاد الكبار بولد صغير يدعى «برتى ويلز» وقذف به فى الهواء.. وبدلاً من أن يتلقاه بعد ذلك وهو يهوى إلى الأرض، دفعه بكل قوته.. فكسرت ساقه!

وقضى برتى فى الفراش شهورًا يتلوى من الألم، وحول قدمه حمل ثقيل من الأربطة.. غير أن العظمة المكسورة لم تلتئم التئامًا صحيحًا، فكان لابد من إعادة كسرها! وكانت تجربة فظيعة بالنسبة للصغير برتى، الذى راح يصرخ أثناءها من الألم والفزع معا..



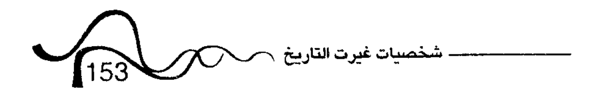
وبدا هذا الحادث فى حينه كمأساة.. ولكن برتى عاش ليستشف من ورائه خيرًا عميمًا، فقد أصبح من أشهر المؤلفين فى العالم أجمع! ـ وإن كنت لا تعرفه باسم «برتى» بل باسم «هربرت جورج ويلز» أو «هـ. ج. ويلز».. وربما تكون قد قرأت بالفعل بعض كتبه، فقد وضع أكثر من خمسة وسبعين كتابًا!

ولقد اعترف «ويلز» بأن حادث كسر ساقه ربما كان من أسعد حوادث حياته! لماذا؟ لأنه قيده فى الفراش فى بيته مدة عام كامل، فكان يلتهم أثناء ذلك كل كتاب يمكنه الحصول عليه ـ لأنه لم يكن ليستطيع أن يفعل شيئًا آخر! ـ وكانت النتيجة أنه شحذ ذوقه الأدبى وحبه للكتب، فحفزته القراءة كما ألهمه الأدب، وعول على التغلب بهما على ما يكتنفه من سأمة وضجر..

وهكذا كانت تلك الساق المكسورة نقطة التحول فى حياته!

لقد صار «هـ. ج. ويلز» من أغلى المؤلفين أجرًا فى العالم كله.. ويرجح أنه أقتنى من قلمه ثروة تقدر بمائتى ألف جنيه! - مع أنه تربى فى أحضان فقر مدقع، فقد كان أبوه من لاغبى (الكريكت) المحترفين، وكان له محل صغير لتجارة الأوانى الصينية يترنح على شفا الإفلاس. وقد ولد هـ. ج. ويلز فى حجرة ضيقة واقعة فوق ذلك المتجر. وكان مطبخ البيت يقع فى «البدروم»، وكان مظلمًا رطبًا ضيقًا يتسرب بصيص النور الوحيد إليه آتيًا من فجوة ضيقة فى إفريز الشارع المرتفع فوقه. وكان من ذكريات ويلز الأولى، جلوسه فى ذلك المطبخ المظلم يراقب أقدام الناس وهى تسير من خلال الفجوة الحديدية الضيقة! وقد كتب عن تلك الأقدام بعد ذلك بسنوات، فأوضح كيف أنه تعلم أن يحكم على الناس من الأحذية التى يلبسونها!

وأخيرًا أفلس متجر الأوانى الصينية فخيم اليأس على العائلة، حتى اضطرت الأم لأن تعمل مديرة



لأحد المنازل فى ضيعة كبيرة فى (سسيكس). وكان من الطبيعى أن تعيش هناك مع الخدم، وكان ابنها كثيرًا ما يذهب إليها لزيارتها. وفى ذلك المكان لاحت فى أفق ويلز أول نظرة عن الحياة الإنجليزية الراقية، وقد تلقاها من جناح الخدم!

بدأ حياته عامل نظافة!

ومؤلف «خلاصة التاريخ» بدأ حياته العملية فى سن الثالثة عشر صبيًا فى محل لبيع الأقمشة. وكان عليه أن يستيقظ فى الخامسة صباحًا فيكنس المتجر ويوقد النار ويعمل عمل العبيد مدة أربع عشرة ساعة فى اليوم.. فمج ذلك العمل لأنه كان نوعًا من التعذيب. وفى نهاية الشهر طرده صاحب المحل لأنه كان «أشعث الهندام، مهملاً، ومشاغبًا!».

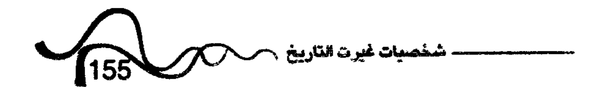
وحصل ويلز بعد ذلك على عمل فى صيدلية.. وللمرة الثانية طرد فى نهاية الشهر!.. وأخيرًا حصل على عمل فى متجر آخر للأقمشة، ولما كان يتحتم عليه أن يحصل على لقمة العيش فقد صمد فى هذه

المرة وقتًا أطول.. ولكنه كان يغافل المراقب وينزل إلى المخـزن فى الدور الأسـفل ليكب على قـراءة كـتب «هربرت سبنسر»!

وانقضى عامان لم يطق ويلز بعدهما صبرًا على هذا النوع من الحياة.. فاستيقظ فى صبيحة أحد أيام الأحـد، ودون أن يتناول طعـام الإفطار، جـرجـر ساقيه، وسار متحاملاً على نفسه مسافة خمسة عشر ميلاً، وبطنه خاوية، إلى حيث كانت أمه.. كان ثائرًا كالمجنون، وقد أخذ يتضرع إليها ويبكى. وأقسم ليقتلن نفسه إذا أرغم على البقاء فى ذلك المتجر بعد ذلك!.. ثم كـتب خطابا طويلاً مـؤثرًا إلى ناظر مدرسته المسن قال له فيه أنه تعس كسير القلب وأنه لا يريد أن يعيش أكثر مما عاش..

ولفـرط دهشـتـه، تلقى ردًا من ناظر المدرسـة يعرض عليه فيه وظيفة.. مدرس!

يالله! لقـد كـانت هذه نقطة تحـول أخـرى فى حياته. ومع ذلك فإن هـ. ج. ويلز يقول لنا فيما أعقب



ذلك من سنى حياته، بصوته الحاد المرتفع، أن سنى التعاسة الطويلة العصيبة التى قضاها فى محل بيع الأقمشة كانت بركة مقنعة.. فقد كان بطبعه كسولاً خاملاً، فعلمه متجر الأقمشة أن يعمل، بغير أن يتعب أو يمل!

النور الذى لاح فى ظلام حياته!

وبعد سنوات قليلة من ممارسته مهنة التدريس حلت به كارثة كأنها انفجار مفاجئ: كان يلعب كرة القدم، وفى حرارة اللعب وحماسته سقط على الأرض وديس بالأقدام وأوشك أن يقتل!

وتفتتت إحدى كليتيه، وثقبت رئته اليمنى، وأصيب بنزيف شديد. ويئس الأطباء من شفائه، حتى لقد ظل عدة شهور مهددًا بموت متوقع فى كل لحظة!

لكنه عاش.. وإن بقى طوال اثنى عشر عامًا رهيبة متعلقًا بأهداب الحياة وهو نصف عاجز!.. ومع ذلك، فأثناء تلك السنوات الأليمة تمكن من أن

يشحذ مقدرته إلى الحد الذى جعل اسمه معروفًا فى أرجاء العالم المتمدين!.. فقد ظل يكتب بحماسة دافقة زهاء خمس سنوات.. ولكن الكتب والمقالات والقصص التى أخرجها كانت كلها غثة، وليدة الهواية. وكان عند ويلز من سلامة التقدير ما جعله يدرك هذه الحقيقة، فأحرق كل ما كتبه تقريبًا!.. وأخيرًا، وبالرغم من أنه كان نصف عاجز، حصل على وظيفة أخرى للتدريس. وكانت هناك فتاة جميلة تحضر دروس علم الحياة تدعى «كاترين روبنز»، فوجد هـ. ج. ويلز نفسه أكثر اهتمامًا بكاترين منه بعلم الحياة! وكانت الفتاة ضعيفة يبدو عليها المرض.. وكان هو كذلك.. فأرادا أن ينتهبا من الحياة كل ما يستطيعان انتهابه من سعادة فى الحال.. فتزوجا!

المهدد بالموت.. يعيش نصف قرن!

كان ذلك منذ أكثر من خمسين عامًا. وبدلاً من أن يموت ويلز، استعاد قوته وتحول إلى محرك آدمى مولد للنشاط، يخرج كتابين طويلين كاملين كل عام..

من هذه الكتب التى تجاوبت أصداؤها فى العالم حتى وفاته فى سنة ١٩٤٦.. لقد كان ذهن ويلز يشتعل بالأفكار اشتعالا.. فكان يستيقظ فى منتصف الليل ليدون فى مفكرته خواطر طارئة.. وإذا بذلك الغلام الكسول الذى طرد مرة من محل بيع الأقمشة لعدم كفاءته، يجمع فى مفكراته مادة من الكثرة بحيث كانت تكفيه لتأليف كتب لمدة مائة وخمسين عامًا!

***

